أَلْفَاظٌ مُشْتَرَكَةٌ بَينَ الخَالِقِ والمَخْلوقِ

في القُرْآنِ الكَريْمِ

«دراسةٌ دَلاليَّة»

الدكتور حَيدر حُسين عُبيد

كلية الإمام الأعظم «رحمه الله» الجامعة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله خالق الخلق أجمعين، والصلاة والسلام على ربِّ الجود والسَّماح المبين، سيدنا محمد المنعم علينا بهذا الدين المتين، وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين، أَخصُّ منهم عيسى خالق الطير من الطين، وعلى آله وصحبه من كانوا له قانتين .

أَمَّا بعدُ؛ فمذ كنَّا طلابًا في الدراسات الأولية كانت تدور بيننا نقاشات حول ضرورة أن يحترز المسلم لألفاظه ما استطاع إلى ذلك سبيلا؛ لأنَّ اللسان قد جُعل على الفؤاد دليلاً..وممَّا كنَّا نتداوله بالنقاش ألفاظ قد يستعملها الناس في مخاطباتهم اليومية، مثل:»ربّ الأسرة» ، أو أن يقول أحدهم للآخر «قد غفرتُ لك» ، فمنَّا من كان ينكر إطلاق مثل تلك الألفاظ على البشر جملةً وتفصيلاً، ومنَّا من يقول نُعرض عنها احترازًا لديننا.

ولكنَّنا حين كنَّا نقرأ كتابَ الله كنَّا نجد فيه كثيرًا من تلك الألفاظ قد أطلقها القرآن الكريم على المخلوقين، كالربّ والمغفرة والرزق والخلق، وحين كنَّا نقصد أساتذتنا العلماء كانوا يجيبوننا بأنَّ هذه الألفاظ حين تطلق على المخلوق فإنَّ لها دلالات تتناسب مع كونه مخلوقًا، فالربّ يعني السيد، وغفران المخلوق لغيره يعني العفو، فلم تكُ تلك الإجابات لتشفي غليلي، وظللتُ أسأل: ما الحكمة الإلهية من استعمال هذه الألفاظ ، دون استعمال ما تدل عليه؟ ؛أي: لِمَ لمْ يقل القرآن الكريم-مثلاً- السيد بدلًا من الربّ، والإعطاء بدلًا من الإغناء، ليحلَّ ما قد يشكل على الناس؟..

ثُمَّ مرَّت السنوات عجلى، فأُتيحت لي الفرصة لكتابة طائفة من الدراسات الدلالية القرآنية، فعقدتُ العزم على دراسة تلك الألفاظ ومحاولة استكناه ما وراءها من دلالات بعيدة حين يوصف بها المخلوق، وقد سمَّيتُ بحثي هذا : (**أَلْفَاظٌ مشْتَرَكَةٌ بين الخَالِقِ والمَخْلوقِ في القرآنِ الكَريم -دراسةٌ دلالية -**)، فأمَّا قولي «ألفاظٌ» بالتنكير؛ فإنَّه للتبعيض؛لإنَّني لم أتناول بالدراسة هذا النوع من الألفاظ كلِّه، وإنَّما تناولت منها ما اشتهر إطلاقُه على الله تعالى.

وأمَّا اختيار المقابلة بين»الخالق والمخلوق»؛ فللإشارة إلى أنَّ الإنسان مهما أطلقت عليه هذه الأوصاف فإنَّه يبقى مخلوقًا والله وحده هو الخالق الرزاق المنعم على الإطلاق .

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن ينقسم على مقدمة وثمانية مباحث وخاتمة، لذلك حاولت ترتيب عنوانات المباحث على وفق قوة ارتباط دلالة كلّ لفظ بالخالق العظيم؛ فجاءت مباحثه على النَّحو الآتي:

- **المبحث الأول : الرَّبُّ .**
- **المبحث الثاني: الخَلْقُ.**
- **المبحث الثَّالث : الرزق.**
- **المبحث الرَّابع : الغفران.**
- **المبحث الخامس : الاستغاثة.**
- **المبحث السَّادس : الإنعام.**
- **المبحث السَّابع : الإغناء.**
- **المبحث الثَّامن : القنوت.**

وكان منهجي في هذا البحث أنَّني أتناول أولاً معنى اللفظ المدروس لغةً، ثُمَّ أتناول بإيجاز دلالته حين يطلق على الله الخالق عزوجل، فإن كان مرتبطًا باسمٍ من أسمائه سبحانه شرحتُ معنى ذلك الاسم الكريم بإيجاز-إذ ليس من شأن هذا البحث دراسة معاني أسماء الله تعالى- ، ثُمَّ تناولت إطلاق اللفظ المذكور على المخلوق، مُحاولاً بيان الغاية البلاغية، والإشارة الدلالية من استعمال ذلك اللفظ -الذي يستعمل وصفًا للخالق أصلاً- دون غيره، والفرق بينه وبين غيره في ضوء السياق العام للآية الكريمة ، ومقام النَّص القرآني وسبب النزول أحيانًا، سعيًا إلى بيان دقة القرآن الكريم في استعمال تلك الألفاظ .

وصلَّى الله على سيِّدنا مُحمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلَّم ..

الباحث

المبحث الأول : الرَّبُّ

يستعمل لفظ الربّ في اللغة للدلالة على معان عدة:

المالك : فَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ: مَالِكُهُ[١] .

السيِّد المُطاع[٢] .

المُصلح[٣]، قال ابن فارس: (وَاللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ الرَّبُّ؛ لِأَنَّهُ مُـصْلِحُ أَحْوَالِ خَلْقِهِ)[٤].

المدبِّر : قال أبو هلال العسكري : (الفرق بين الصفة بربّ والصفة بمالك: أنَّ الصفة برب أفخم من الصفة بمالك؛ لأنَّها من تحقيق القدرة على تدبير ما ملك، فقولنا " رب " يتضمن معنى الملك والتدبير، فلا يكون إلا مطاعًا أيضًا)[٥].

المربّي: قال ابن سيده: (وَأَصله فِي الِاشْتِقَاق من التَّرْبِيَةِ، وَهِي التَّنْشِئَةِ، يُقَال: رَبَّيْتُهُ ورَبَّبْتُهُ بِمَعْنى؛ وَقيل لِلْمَالِك رَبٌّ لِأَنَّهُ يملك تَنْشِئَةَ المَرْبُوبُ، يُقَال للحاضنة الرَّبِيبةُ والرَّبِيبُ ابنُ امْرَأَة الرجل)[٦]، وكان الراغب الأصفهاني أكثر إيضاحًا حيث قال :(الرَّبُّ في الأصل: التربية، وهو إنشاء الشيء حالا فحالا إلى حدّ التمام، يقال رَبَّهُ، وربّاه ورَبَّبَهُ)[٧].

---

(١) - جمهرة اللغة : أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت: ٣٢١هـ= ٩٣٣م)، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧م: مادة(ربب):١/٦٧ .

(٢) - الزاهر في معاني كلمات الناس: أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الأنباري (ت:٣٢٨هـ=٩٤٠ م)، ط١، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٢ هـ-١٩٩٢م:١/ ٤٦٧ .

(٣) - المصدر نفسه : ١/ ٤٦٧ .

(٤) - مقاييس اللغة : أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (ت: ٣٩٥هـ=١٠٠٤م)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م: مادة (رب):٢/ ٣٨٢ .

(٥) - الفروق اللغوية : أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت: نحو ٣٩٥هـ=١٠٠٤م)، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة: ١٨٦ .

(٦) - المخصص : أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت: ٤٥٨ه=١٠٦٦م)، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٧هـ=١٩٩٦م :٥/ ٢٢٧ .

(٧) - المفردات في غريب القرآن : أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢ هـ= ١١٠٨ م)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط١، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، ١٤١٢ هـ: ٣٣٦ .

القَيِّم[١].
المُنْعِم[٢].
الخالق[٣].
الصاحب[٤].

وقد جمع الأستاذ أبو الأعلى المودودي (ت: ١٣٩٩ ه=١٩٧٩م) المعاني التي خرج إليها لفظ الرب في القرآن الكريم، فوجدها تنحصر في[٥]:

١- التربية والتنشئة والإنماء.
٢- الجمع والحشد والتهيئة.
٣- التعهد والاستصلاح والرعاية والكفالة.
٤- العلاء والسيادة والرئاسة وتنفيذ الأمر والتصرف.
٥- التملك.

وخلص إلى أنَّ لفظ الربّ في القرآن الكريم لم يخرج عن هذه المعاني.

وهي بمجموعها معان لم تخرج عن المعاني اللغوية التي ذكرناها سلفاً لهذا اللفظ .

وبعد إحصائي لورود لفظ " الربّ " ومشتقاته في القرآن الكريم وجدت أنها وردت-(٩٧٧مرة)- تسع مئة وسبعًا وسبعين مرَّة، وعلى النحو الآتي:

لفظ الرَّب لمعنى الإله : (٩٧١مرة) تسع مئة وإحدى وسبعون مرة .

---

(١) - النهاية في غريب الحديث والأثر: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري (ت: ٦٠٦ هـ= ١٢١٠ م) تحقيق: طاهر أحمد الزاوي و محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية ، بيروت، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م: ١٧٩/٢ .

(٢) - المصدر نفسه : ١٧٩/٢ .

(٣) - لسان العرب : أبو الفضل محمد بن مكرم بن على، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي(ت: ٧١١ هـ= ١٣١١ م) ، تحقيق: عبد الله علي الكبير، و محمد أحمد حسب الله ، و هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة : مادة (ربب):٣/ ١٥٥١ .

(٤) - المصدر نفسه: مادة (ربب):٣/ ١٥٥١ .

(٥) - ينظر : المصطلحات الأربعة في القرآن: أبو الأعلى بن أحمد حسن المودودي (ت: ١٣٩٩هـ=١٩٧٩م)، تقديم: محمد عاصم الحداد، تخريج: محمد ناصر الدين الألباني، ط١،لاهور ، ١٣٧٤ه- ١٩٥٥م: ٢٣- ٢٧ .

لفظ الرَّب للمخلوق: خمس مرات-في غير مقام الجدل والافتراض[١]*-.

"ربائبكم" مرَّةً واحدة .

والربّ من أسماء الله تعالى ومَعْنَاهُ أَنَّ وُجُودَ كُلِّ مَا سِوَاهُ فَائِضٌ عَنْ تَرْبِيَتِهِ وَإِحْسَانِهِ وَجُودِهِ[٢]،قال القرطبي: (نطق به التنزيل، فقال:﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٣]، وجاء في عداد الأسماء واجمع عليه الأمة ، إلا أنه لم يرد في حديث أبي هريرة[٤]*)[٥]، ثمَّ قال: (فالله سبحانه ربُّ الأرباب ومعبود العباد، يملك المالك والمملوك وجميع العباد، وهو خالق كلَّ ذلك ورازقه، وكل ربٍّ سواه غير خالق ولا رازق، وكل مخلوق فَمُمَلَّكٌ بعد أن لم يكن، ومنتزع ذلك من يده وإنَّما يملك شيئا دون شيء، وصفة الله تعالى مخالفة لهذا المعنى فهذا الفرق بين صفات الخالق والمخلوقين)[٦]، ثم قال: (وقد

---

(١)* - وإنَّما وضعت هذا الاستثناء لإخراج ما سأتناوله في سياق جدال سيدنا إبراهيم عليه السلام لقومه ، فهو من إطلاق لفظ الرب على المخلوق جدلاً ، وإنْ كنتُ سأُعرِّج عليه لاحقًا -إن شاء الله- .

(٢) - مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي(ت: ٦٠٦هـ=١٢١٠م)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م: ١٨٨/١ .

(٣) - سورة الفاتحة، آية : ٢ .

(٤)* - يعني الحديث المرويّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ: ((إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِئَةً إِلاَّ وَاحِدًا، إِنَّهُ وِتْرٌ، يُحِبُّ الْوِتْرَ، مَنْ حَفِظَهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَهِيَ: اللَّهُ، الْوَاحِدُ، الصَّمَدُ ...)). سنن ابن ماجه: أبو عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه - وماجه اسم أبيه يزيد - القزويني (ت: ٢٧٣هـ= ٨٨٧م)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت:١٢٦٩/٢، رقم الحديث: ٣٨٦١ ؛ الجامع الصحيح " سنن الترمذي ": أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك الترمذي، (ت: ٢٧٩هـ= ٩١٠م)، تحقيق: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م:٤١١/٥، رقم الحديث: ٣٥٠٧؛ قال أبو عيسى هذا حديث غريب حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح وهو ثقة عند أهل الحديث. وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ولا نعلم في كثير شيء من الروايات له إسناد صحيح ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث. وهذا الحديث رواه معظم المُحَدِّثين، ولكنهم اختلفوا في تلك الأسماء مع أنهم متفقون على العدد، والحديث في الصحيحين بدون سرد الأسماء .

(٥) - الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاريّ القرطبّي(ت:٦٧١هـ= ١٢٧٣م)، ضبط النص وشرح مادَّته اللغوية: د.محمد حسن جبل، خَرَّجَ أحاديثه وعَلَّقَ عليه:طارق أحمد محمد، ط١، دار الصحابة للتراث، طنطا ، ١٤١٦هـ=١٩٩٥م:٣٩١/١ .

(٦) - المصدر نفسه : ٣٩٤/١ .

قيل: إنَّ الرب مشتق من التربية، فالله سبحانه وتعالى مدبر لخلقه ومربيهم ومصلحهم و جابرهم، القائم بأمورهم، قيوم الدنيا والآخرة، كل شيء خلقه، وكُلُّ مذكور سواه عبد، وهو سبحانه ربه لا يصلح إلا بتدبيره، ولا يقوم إلا بأمره ولا يربه سواه)[١].

أَمَّا إطلاق لفظ الرَّبّ على المخلوق –دون استدراك وفي غير مقام الجدال والافتراض- فقد ورد في القرآن الكريم خمس مرات، كلها في سورة يوسف، وفيما يأتي بيان هذه المواضع :

-الموضع الأول: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٢]، ذهب مقاتل بن سليمان وغيره إلى أنَّ المعنى إنَّه سيدي؛ يعني: زوجها ، قد أكرم منزلتي . وإنَّه لا يفوز الظَّالِمُونَ، إن ظلمتُه في أهله[٣] ، وذهب الفراء إلى أنَّ المراد به المولى، فقال: (يعني مولاهُ الَّذِي اشتراهُ. يقول: قد أحسنَ إليَّ فلا أخونُه)[٤].

ولا أرى فرقاً بين القولين فالمولى هو السيد ..

أَمَّا الزَّجَّاج فقد مال إلى أنَّ المراد بربي هنا الصاحب، فقال: (أي: إن العزيز صَاحبي « أَحْسَن مَثوايَ « ، أي تَولَّانِي في طُولِ مَقَامِي « إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ «؛ أي: إن فعلت هذا فخنته في أهله بعدما أكرمني فأنا ظالم)[٥]، ثُمَّ أطلَّ علينا بقول مختلف حيث قال: (ويجوز أن يكون «إنه ربي» يعني الله عز وجل «أحسن مثواي» أي: تولَّاني في طول مُقامي)[٦].

---

(١) - الأسنى :٣٩٥/١ .

(٢) - سورة يوسف، آية : ٢٣.

(٣) - تفسير مقاتل بن سليمان : أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء البلخي(ت: ١٥٠ هـ= ٧٦٧م)، تحقيق: أحمد فريد ، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤ هـ= ٢٠٠٣ م: ٢/ ١٤٥ . جامع البيان في تأويل القرآن : أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، الطبري ٣١٠(ت:هـ= ٩٢٣م). تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠ هـ- ٢٠٠٠ م:١٦/ ٣٢ .

(٤) - معاني القرآن : أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (ت: ٢٠٧ هـ= ٨٢٢ م) ، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، و محمد علي النجار ، وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي،ط١، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر : ٤٠/٢ .

(٥) - معاني القرآن وإعرابه: أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج (ت: ٣١١ هـ= ٩٢٣ م)، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨ م:١٠١/٣ .

(٦) - معاني القرآن : ١٠١/٣ .

وأجاز النحاس أن يكون المراد ما ذهب إليه مقاتل والفراء، وما أورده الزجاج من توجيه ثانٍ، ولم يرجح أحدهما على الآخر[١] .

ومال القصَّاب إلى ما مال إليه الزجاج ، واستنبط من اختيار لفظ الربّ دلالة لطيفة ، فقال: (وهذا حجة في أنَّ تسمية المخلوق بالرب غير منكر ولا حاطٌّ درجة الناسكين. وفيه بيان أن يوسف، صلى الله عليه وسلم، كان يضع نفسه مع صاحبه موضع المماليك ويسميه ربا)[٢]؛ أي: إنَّ سيدنا يوسف عليه السلام لشدَّة تواضعه، وحفظه للجميل، وعرفانه به، ولين معشره لمن يصاحبه فهو يجعل نفسه أمامه كالمملوك بين يدي سيده .

وذكر الرَّازي، فخر الدين دلالة لفظ الرب هنا ، مشيرًا إشارة خفية إلى الغاية من استعماله ، فقال: (أَيْ رَبِّي وَسَيِّدِي وَمَالِكِي أَحْسَنَ مَثْوَايَ حِينَ قَالَ لَكِ: أَكْرِمِي مَثْوَاهُ، فَلَا يَلِيقُ بِالْعَقْلِ أَنْ أُجَازِيَهُ عَلَى ذَلِكَ الْإِحْسَانِ بِهَذِهِ الْخِيَانَةِ الْقَبِيحَةِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ الَّذِينَ يُجَازُونَ الْإِحْسَانَ بِالْإِسَاءَةِ)[٣].

إذن الإمام الرازي يريد القول إنَّه قال ربي ولم يقل سيدي؛ لأنَّ لفظة ربي تحمل جميع المعاني التي أراد سيدنا يوسف عليه السلام تذكير زليخا بها، من تربية العزيز له على أحسن وجه، وكونه السيد الذي اشتراه ثمَّ أعتقه، وهو المالك شؤونه .

و من هنا انطلق أبو السعود العمادي في بيان جماليات أسلوب هذه الآية ، فقال: (وقولُه عز وجل " إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ "؛ تعليلا للامتناع ببعض الأسباب الخارجيةِ؛ ممَّا عسى يكون مؤثراً عندها وداعياً لها إلى اعتباره، بعد التنبيهِ على سببه الذاتي الذي لا تكاد تقبله لما سوّلتْه لها نفسُها، والضميرُ للشأن-أي:الهاء من"إنَّه- ومدارُ وضعه موضعَه ادِّعاءُ شهرتِه، المُغْنية عن ذكره، وفائدةُ تصديرِ الجملة به الإيذان بفَخامة مضمونِها، مع ما فيه من زيادة تقريرِه في الذهن، فإنَّ الضميرَ لا يُفهمُ منه من أولِ الأمرِ إلا شأنٌ مبهمٌ لهُ خطرٌ ، فيبقى الذهنُ مترقِّباً لما يعقُبه، فيتمكنُ عندَ ورودِه لَهُ فضلُ تمكُّنٍ، فكأنه قيل: إن الشأنَ الخطيرَ هذا . وهو ربي؛ أي: سيدي

(١) - ينظر : معاني القرآن : أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد (ت: ٣٣٨ هـ= ٩٥٠ م)، تحقيق: محمد علي الصابوني، ط١، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٩هـ:٣/٤١٠ .

(٢) - النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام : أحمد محمد بن علي بن محمد الكَرَجي القصَّاب (ت: نحو ٣٦٠هـ=٩٧١م)، تحقيق: علي بن غازي التويجري وآخرون، ط١، دار القيم - دار ابن عفان، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م: ١/ ٦١٣ .

(٣) - مفاتيح الغيب : ١٨/٩١ .

العزيزُ. " أحسنَ مثواي "؛ أي: أحسن تعهّدي؛ حيث أمرك بإكرامي، فكيف يمكن أن أُسيء إليه بالخيانة في حَرَمه؟! . وفيه إرشادٌ لها إلى رعاية حقِّ العزيزِ بألطف وجهٍ)[1].

ويكاد ابن عادل الدمشقي أن يُحيط بالغايات التي من أجلها قال " ربّي " حين حصرها في ثلاث[2]:

الأولى: إنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام أجرى هذا الكلام بحسب الظاهر، على وفق ما كانوا يعتقدون فيه من كونه عبداً.

والثانية: إنَّ العزيز ربه، وأنعم عليه بالوجوه الكثيرة، فعنى بقوله: " إِنَّهُ ربي" كونه مربياً .

والثالثة : إنَّ ذلك من باب المعاريض الحسنةٍ، فإنَّ الظَّاهرِ يحملونه على كونه ربًّا، وهو كأنه يعني به أنه كان مربياً له ومنعماً عليه.

والباحث يميل إلى أنَّ المراد بلفظ الرب هنا العزيز ، وإنَّه سمَّاه ربي؛ لما يأتي:

١- للإشارة إلى أنَه هو من قام على تربيته، ورعايته، والحنوّ عليه، والقيام على شؤونه أحسن قيام، فصدور الخيانة تجاه هذا الموقف من أفظع الفظائع .

٢- لأنَّ يوسف بمنزلة المملوك عنده، ومن أبشع الجرائم تعدّي المملوك على حُرَمِ مولاه، فكيف به وقد أحسن مثواه ؟!

فكلمة ربي صدرت عن يوسف بسبب كلّ تلك النعم، ولنتأمّل ما يقابل ذلك عند امرأة العزيز قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [3]، فلم يقل «ربَّها» ؛ لأنَّ العزيز لم يُربِّ زليخا، وليست أفضاله وأياديه عليها كأياديه على يوسف، وإنَّما هي زوجُه، والأزواج يفضل بعضهم على بعض وإلى ذلك أشار القرآن الكريم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [4]، في حين كان العزيز ليوسف الصاحب والمربّي والمتفضل والمكرم .

(١) - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود): أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ=١٥٧٤م)، دار إحياء التراث العربي، بيروت:٤/ ٢٦٥ .

(٢) - ينظر : اللباب في علوم الكتاب : أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (ت: بعد٨٨٠هـ= ١٤٧٥ م)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩ هـ-١٩٩٨م: ٥٩/١١ .

(٣) - سورة يوسف، آية : ٢٥ .

(٤) -سورة البقرة، من الآية : ٢٣٧.

٣- إنَّه لم يقل «سيدي» -مثلاً- ؛ لأنَّه لو قال لها ذلك لقالت له «وأنا سيدتك أيضًا»؛ لأنَّ السَّيد بالنسبة ليوسف هنا هو المالك، وبالنسبة لها الزوج المطاع الآمر الناهي .

٤- إنَّ ما طلبته منه كان ناتج عن هيامها بحبه وولهها به، فكانت فيما يشبه الغيبوبة، فكان لابدّ لها من صدمة قويّة توقظها من ذلك، وليست هناك من لفظة تحيط بمعاني: التربية ، وحسن الصحبة، والرعاية ، وتدبير الشؤون، والإصلاح، مثل كلمة ربي، وهذه المعاني معان سامية حين تثار في النفس تردعها عن أيِّ نوع من أنواع الخيانة، هذا فضلاً عن أنَّ تذكيرها بتربية زوجها له يشبه تذكيره إياها بأنَّها كانت كالوالدة المربية له ، وذلك أيضًا من أعظم الروادع والزواجر .

وعلى الجانب الآخر نجد القرآن الكريم حين أراد الإشارة إلى نفاذ الأمر لم يُسَمِّ سلطانهم ربا وإنَّما سماه ملكا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ ﴾[١]، فسمَّاه ملكًا للإشارة إلى كون ما صدر عنه إنَّما هو أمرٌ ملكيّ، غير قابل للنقاش، ولا التسويف .

وفي موضع آخر سمَّاه «العزيز»، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾[٢]، لأنَّهم كانوا في موضع تذللٍ وحاجة وفقرٍ وضُرٍّ.

- المواضع: الثاني والثالث والرابع: وفي سورة يوسف نفسها ورد تسمية المخلوق بالرَّب في آيتين متتابعتين، وذلك عند تأويل سيدنا يوسف عليه السلام رؤيا صاحبيه في السجن، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾[٣]، والمراد بربه سَيّده المْلك، الذي في خدمته [٤].

(١) - سورة يوسف، من الآية : ٥٠ .

(٢) - سورة يوسف، آية : ٨٨ .

(٣) - سورة يوسف، الآيتان : ٤١- ٤٢ .

(٤) - تنوير المقباس من تفسير ابن عباس : ينسب: لعبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - (ت: ٦٨ هـ= ٦٨٧ م)، جمعه: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت: ٨١٧هـ= ١٤١٥ م)،ط١، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٥ ؛ اللباب في علوم الكتاب:١٠٨/١١ ؛ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي(ت: ٨٨٥ هـ= ١٤٨٠ م)، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ١٩٩٥ م: : ٤٣/٤ .

ويبدو لي أنَّ المقام هنا يختلف عن المقام في الآية الأولى؛ ولذلك اختلفت الغاية البلاغية هنا، فكانت ما يأتي: في قول سيدنا يوسف «أمَّا أحدكما فيسقي ربَّه خمرًا» فإنَّه لمَّا كان في سياق البشارة فكأنَّ سيدنا يوسف عليه السلام أراد أن يقول للرائي: إنَّك ستكون عند ملك تسقيه خمرًا ، وذلك الملك يكرمك كرمًا عظيمًا حتى أنَّه سيكون لك كالمربّي الذي يقوم على رعاية من يربيه ، وستكون له كالصاحب القريب، ولو قال سيدك مثلاً لتضمَّنت تلك اللفظة الإشارة إلى عبودية ذلك الساقي وقد يرافق تلك العبودية ذلٌّ، ولو قال " الملك " –مثلا- لم تتضمَّن تلك الكلمة الإشارة إلى العلاقة المتينة التي ستكون بين الساقي وربه، وإنما لكانت علاقة عادية بين ملك ومملوك .

إنَّ في قوله "ربَّه" إشارتين: إحداهما : أنَّ ذلك الساقي سيكون في خدمة أحد ملوك مصر؛ لأنَّهم يسمّون الملك ربًّا، والثاني : إنَّه سيعود إلى الملك الذي كان يخدمه نفسه، قال أبو حيّان الأندلسي: (فروي أنه قال : لبنوّ –وهو اسم أحد السجينين-: أما أنت فتعود إلى مرتبتك وسقاية ربك ، وما رأيت من الكرامة وحسنها هو الملك وحسن حالك عنده)[1] .

أمَّا قوله " أذكرني عند ربّك " فلسببين: أحدهما : لموافقة ذكر لفظ الرب أولاً، وللإشارة إلى أنَّه ملكٌ مطاعٌ ثانيًا، وفائدة كونه ملكًا مطاعًا أنَّ سيدنا يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كان يرجو الفرج بالخروج من السجن بسببه .

وأمَّا قوله :" فأنساه الشيطان ذكر ربه " فلموافقة ما سبق .

- الموضع الخامس: ومازلنا في سورة يوسف ليطالعنا لفظ الرب مرة خامسة، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾[2] ، وَذَلِكَ أَنَّ السَّاقِيَ لَمَّا رَجَعَ إِلَى الْمَلِكِ وَأَخْبَرَهُ بِمَا أَفْتَاهُ به يُوسُفُ مِنْ تَأْوِيلِ رُؤْيَاهُ، وَعَرَفَ الْمَلِكُ أَنَّ الَّذِي قَالَهُ كَائِنٌ، قَالَ: ائْتُونِي بِهِ، فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ، وَقَالَ لَهُ: أَجِبِ الْمَلِكَ أَبَى أَنْ يَخْرُجَ مَعَ الرَّسُولِ حَتَّى تَظْهَرَ بَرَاءَتُهُ ثُمَّ، قالَ لِلرَّسُولِ: ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ، يَعْنِي: سيدك الملك، فَسْئَلْهُ مَا بالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ، وَلَمْ يُصَرِّحْ بِذِكْرِ امْرَأَةِ العزيز أدبا واحتراما[3].

---

(١) - البحر المحيط :محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي(ت: ٧٤٥هـ= ١٣٤٤م)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت - ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م: ٥/ ٣٠٩ .

(٢) - سورة يوسف، آية : ٥٠ .

(٣) - معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي: أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت: ٥١٠هـ=)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠ هـ: ٢/ ٤٩٥ ؛ لباب

وقد بين سيد قطب الظلال التي ألقتها هذه الألفاظ قائلاً: (لقد رد يوسف أمر الملك باستدعائه حتى يستوثق الملك من أمره، وحتى يتحقق من شأن النسوة اللاتي قطعن أيديهن.. بهذا القيد.. تذكيراً بالواقعة وملابساتها وكيد بعضهن لبعض فيها وكيدهن له بعدها.. وحتى يكون هذا التحقق في غيبته لتظهر الحقيقة خالصة، دون أن يتدخل هو في مناقشتها.. كل أولئك لأنه واثق من نفسه، واثق من براءته، مطمئن إلى أن الحق لا يخفى طويلاً، ولا يخذل طويلاً. ولقد حكى القرآن عن يوسف استعمال كلمة «رب» بمدلولها الكامل، بالقياس إليه وبالقياس إلى رسول الملك إليه. فالملك رب هذا الرسول لأنه هو حاكمه الذي يدين لسلطانه. والله رب يوسف لأنه هو حاكمه الذي يدين لسلطانه)[1].

ويبدو أنّ سيدنا يوسف إنَّما قال ذلك لعلمه يقينًا بأنَّ ذلك الملك مطاع الأمر، وإنَّ بيده مقاليد الأمور، حتى أنَّه من القوة والتصرف بحيث لا يمكن لأحد الخروج عن أمره، ولديه من التدبير وإمكانات البحث والتَّقصّي ما لا يمكن لأحدٍ معه إخفاء أيِّ حقيقة عنه، مهما كانت .

وهنا ملاحظة عامة : إذ نلاحظ أنه في سورة يوسف فقط سمي الملك ربا، كما نلاحظ أنَّ القرآن الكريم إنما حكاه عن قائلين ؛أي: إنَّ الجمل التي سُمّي فيها الملك ربًّا جميعها نطق بها البشر ونقلها القرآن الكريم لنا على سبيل الحكاية بلا إنكار؛ ولعلَّ ذلك لأنَّ المصريين كانوا يسمون الملك ربًا، في حين إنَّنا نجد أيَّ قول غير مَحْكِيٍّ قد جاء بلفظ «الملك» ، أو «العزيز» .

أَمَّا ما ورد من إطلاق لفظ الرّبِّ على الشمس والقمر على لسان سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فإننا لم نعدّه من تسمية المخلوق بالرب؛ لأنَّه ورد في سياق حجاجه قومه، ولكنَّه جدير بالدراسة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[2]، قال ابن كثير: (وَالْحَقُّ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كَانَ فِي هَذَا الْمَقَامِ مُنَاظِرًا لِقَوْمِهِ، مُبَيِّنًا لَهُمْ بُطْلَانَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ

التأويل في معاني التنزيل»تفسير الخازن»: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (ت: ٧٤١هـ=١٣٤١م)، تحقيق: محمد علي شاهين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ: ٢/ ٥٣٢ .

(١) - في ظلال القرآن : سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت:١٣٨٥هـ= ١٩٦٦م)، ط١٧ ، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ١٤١٢ هـ: ٤/١٩٩٤- ١٩٩٥ .

(٢) - سورة الأنعام، الآيتان :٧٧-٧٨ .

مِنْ عِبَادَةِ الْهَيَاكِلِ وَالْأَصْنَامِ، فَبَيَّنَ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ مَعَ أَبِيهِ خَطَأَهُمْ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ الْأَرْضِيَّةِ، الَّتِي هِيَ عَلَى صُورَةِ الْمَلَائِكَةِ السَّمَاوِيَّةِ، لِيَشْفَعُوا لَهُمْ إِلَى الْخَالِقِ الْعَظِيمِ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ أَحْقَرُ مِنْ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَإِنَّمَا يَتَوَسَّلُونَ إِلَيْهِ بِعِبَادَةِ مَلَائِكَتِهِ، لِيَشْفَعُوا لَهُمْ عِنْدَهُ فِي الرِّزْقِ وَالنَّصْرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ. وَبَيَّنَ فِي هَذَا الْمَقَامِ خَطَأَهُمْ وَضَلَالَهُمْ فِي عِبَادَةِ الْهَيَاكِلِ، وَهِيَ الْكَوَاكِبُ السَّيَّارَةُ السَّبْعَةُ الْمُتَحَيِّرَةُ، وَهِيَ: الْقَمَرُ، وَعُطَارِدُ، وَالزُّهَرَةُ، وَالشَّمْسُ، وَالْمِرِّيخُ، وَالْمُشْتَرَى، وَزُحَلُ، وَأَشُدُّهُنَّ إِضَاءَةً وَأَشْرَقُهُنَّ عِنْدَهُمُ الشَّمْسُ، ثُمَّ الْقَمَرُ، ثُمَّ الزُّهَرَةُ. فَبَيَّنَ أَوَّلًا أَنَّ هَذِهِ الزُّهْرَةَ لَا تَصْلُحُ لِلْإِلَهِيَّةِ؛ لِأَنَّهَا مُسَخَّرَةٌ مَقَدَّرَةٌ بِسَيْرٍ مُعَيَّنٍ، لَا تَزِيغُ عَنْهُ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا وَلَا تَمْلِكُ لِنَفْسِهَا تَصَرُّفًا، بَلْ هِيَ جِرْمٌ مِنَ الْأَجْرَامِ خَلَقَهَا اللَّهُ مُنِيرَةً، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكَمِ الْعَظِيمَةِ، وَهِيَ تَطْلُعُ مِنَ الْمَشْرِقِ، ثُمَّ تَسِيرُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَغْرِبِ حَتَّى تَغِيبَ عَنِ الْأَبْصَارِ فِيهِ، ثُمَّ تَبْدُو فِي اللَّيْلَةِ الْقَابِلَةِ عَلَى هَذَا الْمِنْوَالِ. وَمِثْلُ هَذِهِ لَا تَصْلُحُ لِلْإِلَهِيَّةِ. ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى الْقَمَرِ. فَبَيَّنَ فِيهِ مِثْلَ مَا بَيَّنَ فِي النَّجْمِ. ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى الشَّمْسِ كَذَلِكَ. فَلَمَّا انْتَفَتِ الْإِلَهِيَّةُ عَنْ هَذِهِ الْأَجْرَامِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي هِيَ أَنْوَرُ مَا تَقَعُ عَلَيْهِ الْأَبْصَارُ، وَتَحَقَّقَ ذَلِكَ بِالدَّلِيلِ الْقَاطِعِ، {قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} أَيْ: أَنَا بَرِيءٌ مِنْ عِبَادَتِهِنَّ وَمُوَالَاتِهِنَّ)[1]. وهنا فضلاً عما ذكره معظم المفسرين من أنَ سيدنا إبراهيم عليه السلام قال " ربي " على سبيل الحِجَاج؛ لاستدراج قومه فإنه لا بدّ هنا من التساؤل عن الفائدة من قوله " ربّي " ولم يقل إلهي؟

١- ويبدو لي إنَّه أراد هنا بالربّ المربي، فالإنسان من ناحية الحاجة إلى خالقه كحاجة الوليد لمن يربيه ويقوم على شؤونه كلها، والمربي الحقّ من لا يغفل عن تربية من يربيه؛ ولذلك قال سيدنا إبراهيم عليه السلام " لا أحب الآفلين " أي: من يغفلون عمن يقومون على شؤونهم؛ لأنَّ هذه من صفات العبد المربي، فكيف يُعبد من يهمل أبسط متطلبات الربوبية ؟!.

فإن قيل: إنَّ المربي قد يغفل عمَّن يربيه؟ قلت: إذا كانت الغفلة مستهجنة من البشر فكيف بالرب الخالق المستحقّ العبادة؟ . إنَّ غيبة تلك الكواكب تكون لنصف اليوم تقريبًا وليست هي بغفلة ساعة، فَمَنْ يقصد العبدُ إنْ أهمّه أمر في ذلك الوقت ؟ .

٢- إنَّه قال ربّي؛ احترازًا عن أن يلفظ لفظًا مخالفًا للشرع؛ لأنَّ الربّ ممكن أن يطلق على معانٍ أخرى-كالتربية والصحبة والسيد- بخلاف الإله الذي لا يدلّ إلاّ على الربّ المقصود بالعبادة .

(١) - تفسير القرآن العظيم (ابن كثير): أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ= ١٣٧٣ م)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩ هـ: ٣/ ٢٦١ .

المبحث الثاني: الخَلْقُ

الخَلْقُ: التقديرُ. يقال: خَلَقْتُ الأديمَ، إذا قَدَّرْتَهُ قبل القطع[١] ، وأضاف ابن فارس أصلاً آخر، فقال : (الْخَاءُ وَاللَّامُ وَالْقَافُ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا تَقْدِيرُ الشَّيْءِ، وَالْآخَرُ مَلَاسَةُ الشَّيْءِ)[٢].

والخالق من أسماء الله تعالى بلا خلاف، وقد بيَّن الإمام الغزالي معنى هذا الاسم، وبسط القول في بيان حقيقته حين قال: (وَالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَالقٌ من حَيْثُ أَنه مُقَدّر، وبارئٌ من حَيْثُ أَنه مخترع موجد، ومصورٌ من حَيْثُ أَنه مُرَتّب صور المخترعات أحسن تَرْتِيب وَهَذَا كالبناء مثلا، فَإِنَّهُ يحْتَاج إِلَى مُقَدّر يقدر مَا لَا بُد لَهُ مِنْهُ من الْخشب وَاللَّبن ومساحة الأَرْض وَعدد الْأَبْنِيَة وطولها وعرضها، وَهَذَا يَتَوَلَّاهُ المهندس فيرسمه ويصوره، ثمَّ يحْتَاج إِلَى بنَّاء يتَوَلَّى الْأَعْمَال الَّتِي عِنْدهَا يُحدث أصُول الْأَبْنِيَة، ثمَّ يحْتَاج إِلَى مزين ينقش ظَاهره، ويزين صورته، فيتولاه غير الْبناء. هَذِه هِيَ الْعَادة فِي التَّقْدِير وَالْبناء والتصوير وَلَيْسَ كَذَلِك فِي أَفعَال الله عزوجل بل هُوَ الْمُقدر والموجد والمزين، فَهُوَ الْخَالِق البارئ المصور)[٣]، وقد أوجز ابن الأثير هذا المعنى فقال: (فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى «الْخَالِقُ» وَهُوَ الَّذِي أوْجد الْأَشْيَاءَ جميعَها بَعْدَ أَنْ لَمْ تكنْ مَوْجُودة. وَأَصْلُ الخَلْقِ التَّقْدير، فَهُوَ باعتِبار تَقْدِيرِ مَا مِنْهُ وُجُودُها، وَباعْتِبَارِ الْإِيجَادِ عَلَى وَفْق التَّقْدِيرِ خَالِقٌ)[٤].

وأورد الدَّقِيقي معاني الخلق في القرآن الكريم ، فقال: (والخلق يكون إبداعا وَيكون تركيبا فَمن الْخلق الَّذِي مَعْنَاهُ الإبداع قَوْله تَعَالَى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾[٥]، وَمن الْخلق الَّذِي مَعْنَاهُ التَّرْكِيب قَوْله تَعَالَى ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[٦] وَقَوله تَعَالَى ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ

(١) - الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية : أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت: ٣٩٣ هـ= ١٠٠٣ م)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م: مادة (خلق):٤/١٤٧٠؛ لسان العرب: مادة (خلق):١٠/٨٥ .

(٢) - مقاييس اللغة :٢/ ٢١٣.

(٣) - المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي(ت:٥٠٥هـ=١١١١م)، تحقيق:بسام عبد الوهاب الجابي، ط١، الجفان والجابي، قبرص، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م:٧٦ .

(٤) - النهاية في غريب الحديث والأثر: ٢/٧٠ .

(٥) -سورة فاطر، من الآية : ٣ .

(٦) - سورة المؤمنون، من الآية : ١٤ .

كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى ﴾[1].

وقد ورد لفظ الخلق ومشتقاته في القرآن الكريم (٢٦١مرة) مائتين وإحدى وستين مرة، كلّها أُطلقت على الخالق إلا ثلاثة مواضع وصف بها المخلوق ، منها موضعان في وصف سيدنا عيسى عليه السلام، والثالث في وصف فعل الكفار .

١- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[2]، ذهب الزجاج إلى أنَّ المراد بخلق سيدنا عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، هنا: الصُّنع[3]، وذهب الأكثرون إلى أنَّ المراد هو التشكيل؛أي: تشكيل الطين، قال البغوي: (أَيْ: أُصَوِّرُ وَأُقَدِّرُ، لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ، وَالْهَيْئَةُ الصُّورَةُ الْمُهَيَّأَةُ مِنْ قَوْلِهِمْ: هَيَّأْتُ الشَّيْءَ إِذَا قَدَّرْتُهُ وَأَصْلَحْتُهُ)[4]، وقد علَّل الرازي هذا التفسير للفظ الخلق بالقول: (وَذَلِكَ لِأَنَّهُ ثَبَتَ أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَكُونُ خَالِقًا بِمَعْنَى التَّكْوِينِ وَالْإِبْدَاعِ، فَوَجَبَ تَفْسِيرُ كَوْنِهِ خَالِقًا بِالتَّقْدِيرِ وَالتَّسْوِيَةِ)[5] .

ويبدو لي إنَّه قال ذلك لأنَّ سيدنا عيسى كان في مقام بيان ما أكرمه الله به من المعجزات فكأنه أراد التأكيد على كونها معجزة وأنَّها صلاحية من الله وحده، فالله هو الخالق وحده وهو القادر على منح تلك القدرة –أو الصلاحية – لمن يشاء من عباده، والخلق جميعًا في الأزمان السالفة كانوا إذا ما سئلوا عن خالقهم فإنهم يجيبون بسرعة[6]* «الله» ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) - اتفاق المباني وافتراق المعاني: سليمان بن بنين بن خلف بن عوض، تقّي الدين، الدقيقي المصري (ت: (٦١٣ هـ = ١٢١٦ م)، تحقيق: يحيى عبد الرؤوف جبر، ط١، دار عمار، الأردن، ١٤٠٥هـ١٩٨٥م: ٢٤١ ؛ والآية من سورة المائدة، من الآية : ١١٠ .

(٢) - سورة آل عمران، آية : ٤٩ .

(٣) - ينظر : معاني القرآن:٤١٣/١ .

(٤) - معالم التنزيل : ١/ ٤٤١ .

(٥) - التفسير الكبير :٤٩/٨ .

(٦)* - وقد ظهر لي ذلك عند تأمّل سبب الحذف في هذه الآية، وذلك في دراسةٍ سابقة، فتقدير قولهم: «ليقولنَّ الله»: خلقهنَّ الله، إذ وردت هذه الآية في سياق آيات عدة تجادل المشركين لذا فأنا أزعم أن الحذف وقع هنا لبيان التناقض النفسي الذي كانوا يعيشونه، وذلك أنهم إذا سُئلوا عمّن خلق السموات والأرض بهذه الخلقة العجيبة والنظام البديع، وسَخَّر الشمس لإضاءة النهار، والقمر لإضاءة الليل ولمعرفة الأيام

﴿وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [١]، إذن هم يؤمنون إيمانًا فطريًا بكون الله هو الخالق، فهو القادر وحده على جعل من يشاء حاملا تلك الصفة، ففاقد الشيء لا يعطيه، وهنا طبعًا مع بقاء الفرق بين خلق الخالق وخلق المخلوق، إذ الخالق يوجد من العدم في حين لا يوجد المخلوق من العدم شيئا، ولو قال -مثلا- أقدر وأصور لم يتضمن ذلك الفعل الإشارة أي معجزة، إذ من الممكن أن يشاركه فيه غيره.

ويؤكِّد ما ذهبتُ إليه من كونها صلاحية وهبها الله نبيه أنَّ القرآن الكريم قد وصف خلق الله الخلق وبثه الروح فيهم بالألفاظ نفسها التي وصف فيها معجزة عيسى، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [٢]، فوصف فعله سبحانه بأنَّه خلق أولاً، ثُمَّ نفخ الروح ثانياً، ولمَّا أورد معجزة عيسى، قال: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [٣]، فذكر أنَّه يخلق أولاً، ثُمَّ ينفخ الروح ثانيًا، وكلّ ذلك بالنسبة لعيسى إنَّما هو بإذن الله، وليس هو خلقًا بالاستقلال.

ويؤكّد ما ذهبت إليه أيضًا المقام الذي ورد فيه اللفظ، فهو مقام ذكر المعجزات، وهي:

١. **إبراء الأكمه.**
٢. **إبراء الأبرص.**
٣. **إحياء الموتى.**

إخبار الناس بما في بيوتهم من الطعام المأكول والمُدَّخر على حدٍّ سواء ..وكُلُّ تلك الأفعال إنَّما هي لله وحده استقلالاً، وإنَّما أعطى سيدنا عيسى عليه السلام صلاحيَّةَ فِعل ذلك على سبيل المعجزة، والمعجزة: أمر خارق للعادة لا يقدر عليه البشر، يظهره الله على يد النبي وفق دعواه

والشهور فإن ذلك التساؤل يُحَرِّك في نفوسهم الإيمان الفطري الذي يعلم حقًّا أنَّ الله هو الخالق، ليجيبوا دون تلكؤ أو تلعثم، إجابة سريعة فيقولون:«الله»، ولا يلفظون» خلقهنّ»؛ ومع ذلك فهم يكفرون. ينظر تفصيل ذلك في ذلك أطروحتنا للدكتوراه :الحذف بين النحويين والبلاغيين دراسة تطبيقية:كلية الآداب-الجامعة الإسلامية بغداد»سابقًا- الجامعة العراقية «حاليًا، ١٤٣٠هـ=٢٠٠٩م:١٧٥.

(١) - سورة العنكبوت، آية : ٦١.

(٢) - سورة الحجر، الآيتان : ٢٨ – ٢٩.

(٣) - سورة آل عمران، آية : ٤٩.

تصديقاً له، وإن وقوع المعجزة أمر ممكن؛ ذلك أن الله الذي خلق الأسباب والمسببات قادر على أن يغير نظامها؛ فلا تخضع لما كانت له من قبل! ولا عجب في ذلك ولا غرابة بالنسبة لقدرة الله التي لا تحد بحدود؛ فهو يفعل ما يريد وبأسرع ما يكون[1].

كما ورد وصف سيدنا عيسى عليه السلام بالخلق في سياق ذكر الله سبحانه وتعالى ما منَّ عليه به من نعم ومعجزات، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[2].

وما قلناه من توجيه في الآية الأولى نقوله هنا، بل لعلَّ المقام هنا أكثر وضوحًا في ذكر معجزاته عليه السلام ، فقد افتتحها بذكر معجزة ولادته وتأييده بروح القدس، ثمَّ معجزته في تكليم الناس في المهد،ثمَّ الحكمة، ثمّ معجزة التوراة، ثُم الإنجيل ، فناسب ذلك أن يذكر ما وهبه من صلاحية الخلق –على سبيل المعجزة- ثُمَّ إبراء ذوي العاهات، ثمَّ حماية الله له ممن كان يرومه بالقتل برفعه إليه .

وخلاصة ما يراه الباحث في سبب إطلاق فعل الخلق على سيدنا عيسى عليه السلام أنَّ القرآن الكريم أراد أن يؤكِّد أنه عليه السلام جاء بفعل لا يستطيعه إلا الله تعالى – وكان ذلك له على سبيل المعجزة- ؛ لأنَّ الله هو الخالق وهو الشافي وهو محيي الموتى استقلالاً ، ولكنَّه كما نسب الإحياء لعيسى فقال "تحيي"، فإنَّه نسب الخلق له فقال: "تخلق" .

ومن نسبة فعل الخلق إلى المخلوق ما ورد على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام في سياق الإنكار على المشركين صنعهم الأصنام بأيديهم وادعائهم أنَّها آلهة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[3]، وللمفسرين في معنى « وتخلقون إفكاً « أقوال:

(١) - الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه عند أهل السنة والجماعة :عبد الله بن عبد الحميد الأثري، مراجعة وتقديم: د.عبد الرحمن بن صالح، ط١، مدار الوطن للنشر، الرياض، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م: ١٤٥ .

(٢) - سورة المائدة، آية : ١١٠ .

(٣) - سورة العنكبوت، آية : ١٧ .

الأول: تَقُولُونَ كَذِبًا . ذكره مجاهد[١] ، والزجاج[٢] ، ومال إليه ابن قتيبة[٣].

والثاني: تعملون الأصنام، أورده الزجاج، فقال: (وقيل تعملون الأَصْنَامَ، ويكون التأويلُ على هذا القول: إنما تعْبُدُونَ من دون الله أَوْثَاناً وأَنْتُم تصنعونَها)[٤].

والثَّالث: إنَّ المراد تسميتهم الأوثان آلهة وشركاء الله أو شفعاء إليه، ذكره الزمخشري[٥].

والرابع: إنَّ المراد بالخلق هنا بالخلق الهْم بالشَّيْء والعزم على فعله، أورده أبو البقاء[٦].

وقد أشار سيد قطب إلى سبب تسمية فعلهم خلقًا بقوله: (إنَّهم بهذه العبادة لا يستندون إلى برهان أو دليل، وإنما يخلقون إفكا وينشئون باطلا، يخلقونه خلقا بلا سابقة أو مقدمة، وينشئونه إنشاء من عند أنفسهم بلا أصل ولا قاعدة)[٧].

والذي يراه الباحث في سبب تسمية فعل هؤلاء خلقًا وبما أنَّ المقام في الرد على اختلاق الكفار وادعائهم فإنَّه أراد أن يؤكد لهم أنَّ ما أتوا به من ادعاء الآلهة لم يكن له نظير في الأمم السابقة، فكأنهم أتوا بشيء لم يأت به أحد قبلهم، وأوجدوه بعد أن كان معدومًا ولم يقل به أحد ممن يمكن أن نسمي أقوالهم وآراءهم أقوالاً حقيقية، ومثال هذا الخطاب موجود في لغة التخاطب اليومية، كأن يقول أحدنا للآخر : (**أريدك أن تجلب لي كذا وكذا..أريدك أن تخلقه وتأتي لي به)**

ونحن قطعًا لا نعني الإيجاد من العدم، وإنَّما نعني أن يعمل الإنسان جهده في جلب ذلك الشيء وأن يسخر لإيجاده طاقاته كافة وأن يبذل في تحصيله أقصى ما يقدر عليه، وهكذا أراد القرآن الكريم التأكيد على أنهم حرصوا على ابتداع فعل وقول لم يسبق أن أتى أحد بمثلهما .

(١) - تفسير مجاهد : أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي (ت: ١٠٤هـ=٧٢٢م)، تحقيق: د.محمد عبد السلام أبو النيل، ط١، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر،١٤١٠هـ - ١٩٨٩م: ٥٣٤ .

(٢) - معاني القرآن : ١٦٤/٤ .

(٣) - تأويل مشكل القرآن : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦هـ= ٨٨٩م)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت: ٢٧٣ .

(٤) - معاني القرآن : ١٦٤/٤ .

(٥) - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي(ت: ٥٣٨هـ= ١١٤٣م)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ٣/ ٤٥١ .

(٦) - الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية : أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، الحنفي (ت: ١٠٩٤م =١٦٨٣م)، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٠٨٣.

(٧) - في ظلال القرآن : ٥/ ٢٧٢٨ .

المبحث الثَّالث : الرزق

الرِزْقُ: ما يُنْتَفَعُ به والجمع الأرزاق. والرزق العطاء، وهو مصدر قولك: رَزَقَهُ الله. والرَزْقَةُ بالفتح: المرّة الواحدة، والجمع الرَزَقاتُ، وهي أطماع الجند. وارْتَزَقَ الجندُ،؛ أي: أخَذوا أرزاقهم[١].

وذكر ابن فارس الأصل الذي يرجع إليه معنى الرزق، وما يتفرع عليه من معان فقال: (الرَّاءُ وَالزَّاءُ وَالْقَافُ أُصَيْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى عَطَاءٍ لِوَقْتٍ، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْهِ غَيْرُ الْمَوْقُوتِ. فَالرِّزْقُ: عَطَاءُ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ. وَيُقَالُ رَزَقَهُ اللَّهُ رِزْقًا، وَالِاسْمُ الرِّزْقُ)[٢].

والرزَّاق من أسماء الله تعالى، قال الإمام الغزالي: (هُوَ الَّذِي خلق الأرزاق والمرتزقة، وأوصلها إِلَيْهِم، وَخلق لَهُم أَسبَاب التَّمَتُّع بهَا)[٣].

وقال الحليمي في معنى الرزَّاق: (هو المتكفل بالرزق، والقائم على كل نفس بما يقيمها من قوتها)[٤]، وقال: (الرزاق معناه: المُفيض على عباده ما لم يجعل لأبدانهم قواما إلا به، والمنعم عليهم بإيصال حاجتهم من ذلك إليهم؛ لئلا تنغص عليهم لذة الحياة الدنيا بتأخره عنهم ولا يفقدوها أصلا لفقدهم إياه)[٥].

وذكر العسكري الْفرق بَين الرزق والحظ، فقال: (إِنَّ الرزق هُوَ الْعَطاء الْجَارِي فِي الحكم على الإدرار؛ وَلِهَذَا يُقَال أرزاق الْجند تجْرِي على إدرار والحظ لَا يُفِيد هَذَا الْمَعْنى وَإِنَّمَا يُفِيد ارْتِفَاع صَاحبه على مَا ذكرنَا)[٦] ، إذن الرزق فيه صفة الدوام والدَّورية؛أعني:الانتظام.

وقد ورد «رزق» ومشتقاته في القرآن الكريم(١٢٣مرة) مئة وثلاثًا وعشرين مرة، وقد أُطلق على المخلوق في ثلاثة مواضع فقط :

(١) - الصحاح :مادة (رزق):١٤٨١/٤ ؛ أساس البلاغة : أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله ، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م: ٣٥١/١؛ لسان العرب: مادة (رزق):١٦٣٧/٣ .

(٢) - مقاييس اللغة : ٢/ ٣٨٨ .

(٣) - المقصد الأسنى: ٨٤ .

(٤) - الأسنى : ٢٧٩/١ .

(٥) - الأسنى : ٢٨٣/١ .

(٦) - الفروق اللغوية : ١٦٦ .

- الموضع الأول: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[١]، يعني: وعلى آباء الصبيان للمراضع=»رزقهن»، يعني: رزق والدتهن، وهو رزْق المرأة المطلقة، ويعني ب»الرزق»: ما يقوتهنَّ من طعام، وما لا بد لهنّ من غذاء ومطعم، وعليه الْكِسْوة ومعنى بالمعروف؛ أي: بما يعرفون أنَّه العدل على قدر الإمكان[٢].

ويبدو لي إنَّه سمَّاه رزقًا ولمْ يُسمِّه نفقةً؛ لما يأتي:

١- لعل فيه إشارة إلى ضعف المرأة المرضع، وافتقارها وولدَها إلى السند والمعين؛ وذلك لضعفهما عن تحصيل الكسب وأسبابه، فهما يترقبان النفقة كمن يترقَّب العطاء من الغيب، حتى كأنَّ القرآن يقول للآباء : هؤلاء ليس لهم إلا أنتم-تحريكًا لعاطفة الرحمة عندهم- ، ثُمَّ إنَّ إتيانه بالمصدر -أي: قوله رزقهنّ وعدوله عن الفعل كقوله فارزقوهم- فيه إشارة إلى ذلك المعنى فكأنه يقول للآباء :أنتم مصدر الرزق الوحيد الذي يترقبونه هؤلاء الضعفاء .

٢- سمَّاهُ رزقًا؛ لأنَّه يستمر فهو دوريٌّ إلى حين انتهاء الرضاع .

- الموضع الثاني: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾[٣] ، مال معظم المفسرين إلى أنَّ المراد: فأعطوهم شيئًا من المال المقسوم تطييبًا لقلوبهم[٤]، وأضاف الزمخشري: (وهو أمر على الندب،قال الحسن:كان المؤمنون يفعلون ذلك إذا اجتمعت الورثة حضرهم هؤلاء فرضخوا لهم بالشيء من رثة المتاع، فحضهم الله على ذلك

(١) - سورة البقرة، آية : ٢٣٣ .

(٢) - تفسير الطبري: ٤٣/٥ ؛ معاني القرآن للزجاج: ٣١٣/١ .

(٣) - سورة النساء، آية : ٨ .

(٤) - ينظر: معاني القرآن للزجاج:١٦/٢؛ بحر العلوم: أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي(ت: ٣٧٥هـ= ٩٨٥م)، تحقيق: د.محمود مطرجي، ط١، دار الفكر، بيروت: ٣٠٩/١ ؛ التفسير الكبير:١٥٩/٩؛ إرشاد العقل السليم :١٤٧ ؛ البحر المديد في تفسير القرآن المجيد : أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي(ت: ١٢٢٤ هـ= ١٨٠٩م)، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي، القاهرة، ١٤١٩ هـ : ٤٦٨/١.

تأديبا من غير أن يكون فريضة)[١].

وقد بيَّن سيد قطب سبب ذلك العطاء في ذلك الموقف،فقال: (ولما كان نظام التوريث- كما سيجيء- يحجب فيه بعض ذوي القربى بعضاً، فيوجد ذوو قرابة، ولكنهم لا يرثون؛ أن من هم أقرب منهم سبقوهم فحجبوهم، فإن السياق يقرر للمحجوبين حقاً لا يحدده- إذا هم حضروا القسمة- تطييباً لخاطرهم، كي لا يروا المال يفرق وهم محرومون، واحتفاظاً بالروابط العائلية، والمودات القلبية. كذلك يقرر لليتامى والمساكين مثل هذا الحق تمشياً مع قاعدة التكافل العام)[٢].

وما يراه البحث هنا: بما أنَّ السياق هنا في ذكر الورثة ومن المعلوم-من واقعنا العملي- أنَّ الورثة تكون نفوسهم مقبلةً على طلب الإرث، طامعةً فيه، مُتَشَوِّفةً إلى تحصيله، مستقتلةً على ذلك-ولاسيَّما عند تقسيمه، إذ كثيرًا ما يُخَوِّنُ بعضُ الوارثين بعضًا- لأنَّ الإرث غنيمةً بلا مشقة، فحين يحظى بها الإنسان يكون حريصًا كلّ الحرص على أن لا يخسر منها أدنى شيء، فإنَّ القرآن الكريم أراد من تلك النفوس أن تسمو فوق تلك الأطماع المادّية، وتخرج من نفوسها التعلق بها؛ لتتخلَّق بأخلاق الله «الرزَّاق- فهو المُعطي بلا انتظار مجازاة، ولا انتظار صنيعة تصدر عمَّن يريد أن يُعطيه؛ لأنَّه رازق الكلّ؛ ولذلك قال:» فارزقوهم «؛أي: ليكون عطاءكم بلا منَّة ولا انتظار جزاء،ودون أن تطرف لكم عين، وهذا أرقى أحوال المعطي..كُلُّ ذلك لتطهير نفوس الورثة من المسلمين.

وقد يتبادر إلى الأذهان هنا سؤال مفاده:ما الفرق في الدلالة بين استعمال المصدر «رزقهن» في الآية السابقة، واستعماله بصيغة الفعل «فارزقوهم» هنا؟

الذي أراه أنَّه استعمل المصدر هناك؛ لأنَّ النفقة التي يعطيها الزوج لزوجه وابنه هي مصدر معيشتهم الوحيد، في حين استعمل الفعل هنا؛ لأنَّ أولي القربى واليتامى والمساكين قد تكون لهم مصادر رزق أخرى يمكنهم أن يتحصَّلوا منها على النفقة، بخلاف المرأة الضعيفة والطفل الرضيع .

الموضع الثَّالث : قَالَ تَعَالَىٰ:﴿بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾[٣]، والمراد بالرزق هنا عند

(١) - الكشاف:٥٠٨/١ .

(٢) - في ظلال القرآن :٥٨٨/١ .

(٣) - سورة الكهف، آية :١٧ .

المفسرين بلا خلاف:قُوتٌ وَطَعَامٌ يَأْكُلُونَهُ[١]، في حين قال الماوردي: (يحتمل بما ترزقون أكله، أو بما يحل أكله)[٢].

أَمَّا الشيخ محمّد أبو زهرة فقد حاول بيان طبيعة ذلك القوت والطعام بقوله:(والرزق القدر الذي يتبلغون به، أو يكفيهم)[٣].

ويبدو لي إنّهم قالوا: "برزقٍ" ولم يحدِّدوا نوع الطعام؛ لأنَّهم قد علموا أنَّهم قد ناموا نومةً طويلة، وخلال تلك المُدّة الطَّويلة لابدَّ وأنْ يكون العالم الخارجي قد تغير فيها تغيُّرًا كبيرًا، فهم لا يعلمون ما قد يتوافر فيه من الأطعمة وما لا يتوافر، إذ ذلك بالنسبة لهم كالغيب المجهول، وكُلّ ما قد يناله الناس دون علمٍ به أو بتفصيلاته فإنَّهم يُسمّونه رزقًا، حتى في زمننا هذا .

(١) - ينظر: تفسير الطبري:١٧/ ٦٢٧؛ معالم التنزيل:١٨٥/٨؛ الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١هـ=١٢٧٣م)، تحقيق: هشام سمير البخاري، ط١، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٣ م:٣٧٥/١٠ ؛ اللباب في علوم الكتاب:٤٥١/١٢

(٢) - النكت والعيون: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي(ت: ٤٥٠هـ = ١٠٥٨م)، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت:٣/ ٢٩٤؛ ومختصره المسمَّى: تفسير القرآن :أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (ت: ٦٦٠هـ= ١٢٦٢م)، تحقيق: د.عبد الله بن إبراهيم الوهبي، ط١، دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٦هـ= ١٩٩٦م: ٢/ ٢٤٢ .

(٣) - زهرة التفاسير : محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (ت:١٣٩٤هـ= ١٩٧٤م)، دار الفكر العربي، بيروت: ٤٥٠٩ .

المبحث الرَّابع : الغفران

أصل الغفْر: السّتر والتغطية، غفرتُ المَتاع، إذا جعلته فِي وعَاء، أغفِره غَفْراً. وكلُّ شَيْء غطّيته فقد غفرته، وَمِنْه قيل للَّذي يكون تحتَ بيْضة الْحَدِيد على الرَّأْس مغفر، وَمِنْه: غَفرَ اللَّهُ ذُنوبه؛ أَي: سَتَرها، وَمِنْه المَغْفِرة والغَفيرة والغُفْران والغَفَر، وَيُقَال: مَا فيهم غَفِيرَةٌ وَلَا عذيرة؛ أَي: لَا يَغفرون وَلَا يَعذرون[1] .

وذكر أبو هلال العسكري الفروق الدلالية بين الغفران والألفاظ المرادفة له، فحين تناول الفرق بين الغفران والعفو، قال: (إنَّ الغفران يقتضي إسقاط العقاب، وإسقاط العقاب هو إيجاب الثواب فلا يستحق الغفران إلا المؤمن المستحق للثواب، وهذا لا يستعمل إلا في الله فيقال غفر الله لك)[2]. ولا أرى قوله «وإسقاط العقاب هو إيجاب الثواب» دقيقًا، فإنَّنا قد نعفوا عن أحدٍ ما ثُمَّ لا نريدُ رؤيته، أو على الأقل لا نكافئه .

وحين تناول بالدراسة الْفرق بَين الغفران والسّتْر، قال: (إِنَّ الغفران أخصُّ، وَهُوَ يَقْتَضِي إِيجَاب الثَّوَاب، والستر: سترك الشَّيْء بستر، ثمَّ اسْتُعْمل فِي الإضراب عَن ذكر الشَّيْء، فَيُقَال: ستر فلَان إِذا لم يذكر مَا اطلع عَلَيْهِ من عثراته وَستر الله عليه خلاف فضحه، وَلَا يُقَال لمن يستر عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا إِنَّه غفر لَهُ؛ لِأَنَّ الغفران ينبئ عَن اسْتِحْقَاق الثَّوَاب على مَا ذكرنَا، وَيجوز أَن يستر فِي الدُّنْيَا على الكافر وَالْفَاسِق)[3].

والمغفرة اصطلاحًا عند الشريف الجرجاني ترتبط بالمنزلة، فهي تكون من الأعلى مرتبةً تجاه الأدنى، قال: (المغفرة: هي أن يستر القادر القبيح الصادر ممن تحت قدرته، حتى إنَّ العبد إِنْ سَتَرَ عيب سيِّده مخافةَ عتابه، لا يقال: غفر له)[4].

(١) - ينظر: جمهرة اللغة : مادة (غفر): ٢/ ٧٧٨ ؛ تهذيب اللغة : أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، (ت: ٣٧٠ هـ= ٩٨١ م)، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠١م: ١١٢/٨ .

(٢) - الفروق اللغوية : ٢٣٥ .

(٣) - المصدر نفسه : ٢٣٦ .

(٤) - التعريفات : علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت: ٨١٦ هـ= ١٤١٣م)، تحقيق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، ط١،دار الكتب العلمية بيروت، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م:٢٢٣ .

والغفور والغفَّار من أسماء الله تعالى[١]، قال الزَّجَّاج مبيِّنًا معنى كُلٍّ منهما: (الْغفار أصل الغفر فِي الْكَلَام السّتْر والتغطية يُقَال اصبغ ثَوْبك فَهُوَ أَغفر للوسخ أَي أحمل لَهُ وأستر وَمعنى الغفر فِي الله سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يستر ذنُوب عباده ويغطيهم بستره كَمَا جَاءَ فِي الدُّعَاء يَا ستار استرنا بسترك الْحسن الْجَمِيل، وكما جَاءَ فِي الْخَبَر الْمَأْثُور عَن رَسُول الله ﷺ أَنه كَانَ يَقُول فِي دُعَائِهِ لاتهتك أستارنا وَلَا تبل أخبارنا وَلَا تكلنا إِلَى أَنْفُسنَا طرفَة عين[٢]*)[٣].

وقال في معنى الغفور : (هُوَ فعول ...وفعول مَوْضُوع للْمُبَالَغَة، وَكَذَلِكَ فعال وَإِنَّمَا جَازَ تكرارهما وَإِن كَانَا بِمَعْنى وَاحِد وَأَنت لَا تكَاد تَقول فِي الْكَلَام فلَان تروك للفواحش تراك لَهَا وصدوف عَن القبائح صداف عَنْهَا لمعنيين:

أَحدهمَا أَن اخْتِلَاف الْمَوْضِعَيْنِ يحسن من ذَاك مَالا يحسن مَعَ الْمُجَاورَة أَلا تراهم أَجمعُوا على أَن الإيطاء مَعَ بعد الْموضع لَيْسَ هُوَ مثله مَعَ قرب الْموضع .

وَالْوَجْه الآخر أَن هَذَا يحسن فِي صِفَات الله تَعَالَى ذكره وَإِن كَانَ لَا يحسن فِي أسامي المخلوقين وصفاتهم لأَنهم لم يبلغُوا قطّ فِي صفة من الصِّفَات وَالله تَعَالَى المتناهي فِي هَذِه الصِّفَات الَّتِي تمدح بهَا فَيحسن فِيهِ سُبْحَانَهُ من ذَلِك مَا لَا يحسن فِي غَيره وَيَجِيء على قِيَاس قَول أبي عَليّ قطرب أَن يكون الغفور فِي ذنُوب الْآخِرَة والغفار الَّذِي يسترهم فِي الدُّنْيَا وَلَا يفضحهم)[٤].

أَمَّا الإمام الغزالي فإنَّه يرى أنَّ هناك فرقًا واضحًا في المعنى، فقال: (الغفور: بِمَعْنى الْغفار وَلكنه بِشَيْء يُنبئ عَن نوع مُبَالغَة لَا يُنبئ عَنْهَا الْغفار فَإِن الْغفار مُبَالغَة فِي الْمَغْفِرَة بِالْإِضَافَة إِلَى مغْفرَة متكررة مرّة بعد أُخْرَى فالفعال يُنبئ عَن كَثْرَة الْفِعْل والفعول يُنبئ عَن جودته وكماله وشموله فَهُوَ غَفُور بِمَعْنى أَنه تَامّ الْمَغْفِرَة والغفران كاملها حَتَّى يبلغ أَقْصَى دَرَجَات الْمَغْفِرَة وَالْكَلَام عَلَيْهِ قد سبق)[٥].

وخلاصة ما مرَّ فإنَّ معنى غفران الله عزوجل هو ستر العبد في الدنيا والآخرة، وستر ذنبه

(١) - ينظر : المقصد الأسنى : ١٠٥ .

(٢)* - لم أعثر على هذا الخبر فيما بين يديّ من كتب الصحاح، ولا السنن ، ولا المسانيد، ولا المعجمات .

(٣) - تفسير أسماء الله الحسنى: أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج، تحقيق:أحمد يوسف الدقاق، دار الثقافة العربية :٦٥ .

(٤) - المصدر نفسه : ٤٦-٤٧ .

(٥) - المقصد الأسنى: ١٠٥ .

هنا يعني: إخفاؤه ومحو أثره إلى الأبد، حتى كأنه لم يكن قد وقع من قبل، فلا يعقبه أيّ نوعٍ من العتاب، فهو يختلف –مثلاً- عن العفو.

وقد ورد "غفر" ومشتقاته في القرآن الكريم (٢٣٤مرة) مائتين وأربعًا وثلاثين مرة، كُلَّها أُطلقت على الخالق، إلا أربعة مواضع أُطلق فيها الغفران على المخلوق.

- الموضع الأول: قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾[1]،روى المفسِّرون في سبب نزول هذه الآية عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ يسْلِمُ فَيَلُومُهُ أَهْلُهُ وَبَنُوهُ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾، قَالَ عِكْرِمَةُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: وهؤلاء الَّذِينَ مَنَعَهُمْ أَهْلُهُمْ عَنِ الْهِجْرَةِ، لَمَّا هَاجَرُوا وَرَأَوُا النَّاسَ قَدْ فَقِهُوا فِي الدِّينِ هَمُّوا أَنْ يُعَاقِبُوا أَهْلِيهِمُ الَّذِينَ مَنَعُوهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2]، والعفو والصفح والغفران ثلاثة ألفاظ لكُلٍّ منها معنى يختلف عن اللفظ الآخر عند الإمام البيضاوي، فهي عنده على الترتيب[3] :

١- **وَإِنْ تَعْفُوا: عن ذنوبهم بترك المعاقبة.**

٢- **وَتَصْفَحُوا: بالإعراض وترك التثريب عليها.**

٣- **وَتَغْفِرُوا: بإخفائها وتمهيد معذرتهم فيها.**

فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ يعاملكم بمثل ما عملتم ويتفضل عليكم.

أمَّا ابن الأثير الكاتب فإنَّه يرى أنَّ هذه الثلاثة ألفاظ مترادفة، وإنَّ تكرارها إنَّما كان لغاية تحسين العفو نفسه، قال: (فإنه إنما كرر العفو والصفح والمغفرة، والجميع بمعنى واحد للزيادة في

---

(١) - سورة التغابن، آية : ١٤ .

(٢) - تفسير الطبري: ٢٣/ ٤٢٥ ؛ أحكام القرآن: القاضي أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد الأزدي البصري ثم البغدادي المالكي الجهضمي (ت: ٢٨٢ هـ= ٨٩٦ م)، تحقيق: عامر حسن صبري، ط١، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢٦هـ=٢٠٠٥م: ٤٢٥؛ أسباب نزول القرآن : أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت: ٤٦٨ هـ= ١٠٧٦م)، تحقيق: كمال بسيوني زغلول، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١ هـ: ٤٥٤ .

(٣) - أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٩١هـ= ١٢٩٢م)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٨ هـ: ٥/ ٢١٩ .

تحسين عفو الوالد عن ولده والزوج عن زوجته)[١].

ولم يرتضِ ابن أبي الحديد هذا التوجيه، ورأى أنَّ المقصود بالتوكيد هو المأمور، لا تأكيد الأمر نفسه، فقال: (فإذا كان هذا قوله فما المانع من أن يكون المراد بالمرة الثانية والثالثة في الأمر زيادة التكرير في نفس المأمور، وأن المأمور به مراد منه؟ فإن هذا غرض صحيح؛ لأنه لو قال له اعلم أنَّ هذا الشيء مما أريده منك، وكرر هذا مرتين أو مرارا لم يكن قبيحًا، إذا قصد تأكيد تلك الحال وتقريرها في نفس المخاطب فلم يذهب إلى أن المرة الثانية أفادت عين ما أفادته المرة الأولى من غير زيادة، بل أفادت زيادة بينة، وهي قوة اعتقاد المخاطب أن ذلك الشيء المأمور به مراد لا محال، ما أفاد قوله: {وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا}زيادة تحسين العفو كما ذكره، فقد بطل قوله: فليبين الخصم معنى هذه الزيادة، ولا سبيل إلى ذلك، وقد بينت أن سبيل الخصم إليها أوضح سبيل)[٢].

وأرى أنَّ الخلاف بين القولين لفظي ليس بذي بال، ومن الممكن الجمع بينهما لنقول: إنَّ تكرار هذه الألفاظ متقاربة المعاني جاء لتكرير المعنى وتوكيده في نفس الإنسان المأمور بالعفو، فأمَّا القول بأنَّ هذه المصطلحات مترادفة تمامًا وهي تدلّ على المعنى نفسه فهذا ما لا نرتضيه؛ لأنَّ التعبير القرآني تعبير فنّيٌّ مقصود يختار كلَّ لفظة بدقَّةٍ في موضعها المناسب ، حتى لو أنَّ إحداها بُدِّلت بأخرى لم تؤدِّ ما أدته أُختها .

أمَّا الغاية من استعمال لفظ الغفران هنا فإني أرى فيها الآتي:

لغرض التدرج في المعالجة النفسية : وذلك لأنَّ الآية نزلت في رجال مؤمنين كانوا حريصين على هجرة بلاد الكفر سعيًا إلى رضا الله ورسوله فلمَّا فاتهم ذلك بسبب أزواجهم وأولادهم أحدث لهم ألمًا عظيما في نفوسهم وشحن قلوبهم تجاه أُسرهم فهمّوا بإنزال العذاب بهم، فأراد القرآن الكريم إزالة ذلك الحنق والغيض من نفوسهم، وبما أنَّه ليس من السهل إزالة مثل ذلك الغيض بسرعة من تلك النفوس في تلك الظروف، فإنَّه تدرَّج في مخاطبتها:

---

(١) - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد (ت: ٦٣٧ هـ١٢٣٩م)، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ،القاهرة: ٣٠/٣ .

(٢) - الفلك الدائر على المثل السائر (مطبوع بآخر الجزء الرابع من المثل السائر): عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد، أبو حامد، عز الدين (ت: ٦٥٦ هـ = ١٢٥٨ م)، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ، القاهرة :٢٨٨/٤ .

فطلب منها أولاً: العفو وهو ترك المعاقبة. ثمَّ انتقل إلى ما هو أقوى منه وأعلى مرتبة وهو الصَّفح، وهو ترك اللوم، أو هو جعل ذنب المذنب وراء الظهر ومحاولة نسيانه، وإنَّما قلنا إنَّ الصفح أعلى مرتبة من العفو؛ لأنَّ الإنسان قد يقول لآخر قد عفوت عنك ولن أُعاقبك: ولكن: لم فعلت كذا وكذا؟، فيعاتبه، قال الراغب الأصفهاني : (صَفْحُ الشيءِ: عرضه وجانبه، كَصَفْحَةِ الوجهِ، وصَفْحَةِ السّيفِ، وصَفْحَةِ الحَجَرِ.والصَّفْحُ: تركُ التّثريب، وهو أبلغ من العفو، ولذلك قال: فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ، وقد يعفو الإنسان ولا يَصْفَحُ. ... وصَفَحْتُ عنه: أوليته مني صَفْحَةٍ جميلةٍ معرضا عن ذنبه، أو لقيت صَفْحَتَهُ متجافيا عنه، أو تجاوزت الصَّفْحَةَ التي أثبتّ فيها ذنبه من الكتاب إلى غيرها، من قولك: تَصَفَّحْتُ الكتابَ)[1].

وأعلى من ذلك كلِّه الغفران: وهو محو أصل الذنب، وبيان ذلك إنَّ الإنسان قد يضع ذنب غيره وراء ظهره ويترك تعنيفه ولكنَّه قد يبقى يذكره بين الحين والآخر، ولكنَّ الغفران محو ذلك الذنب أصلاً، إذن فالقرآن الكريم راعى التدرّج في تهذيب النفوس وهذا منهج قرآنيٌّ مُطَّرد .

٢- الحرص على تقوية الروابط الأسرية: لأنَّ القرآن الكريم أمر بأعلى أنواع العفو تجاه الأسرة وهو الغفران ؛كي لا يبقى في النفوس شيء لتعيش الأسرة في سعادة ويؤدي ربّ الأسرة دوره كاملاً ؛ سعيًا إلى بناء مجتمع متماسك نواته الأسرة المتماسكة ، ولو تأمَّلنا الآيات المشابهة لهذ الآية ومنها قوله تعالى ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2]، فالمقام هنا مختلف فهو في مقام توجيه شعور المسلمين تجاه أهل الكتاب الذين يحاولون باستمرار أن يردوا المسلمين عن دينهم ، فكأنه يقول أديروا ظهوركم لأخطاء هؤلاء حتى يقضي الله أمره ويحكم فيهم بحكمه، وليس هو مقام توجيه شعور تجاه الأسر؛ ولذلك ليس هم بحاجة إلى أعلى نوع من العفو ؛ ولذلك لم يُطالبهم بالمغفرة لهم .

الحثّ على التخلّق بأخلاق الله: بما أن هذا أمر مباشر بالمغفرة فلعل القرآن الكريم يريدنا أن نتخلق بأخلاق الله الذي خلق الخلق ورزقهم من الطيبات وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ومع هذا فهو يتجاوز عن العاصين الخارجين عن منهجه، فالمؤمنون يعلمون أنَّ الغفران الحقيقي المطلق هو غفران الله، ويؤكِّد ذلك أنَّه تعالى قال في آخرها والله غفور رحيم أي هذه أخلاق الله

(١) - المفردات في غريب القرآن : ٤٨٦ .

(٢) - سورة البقرة، آية : ١٠٩ .

فتخلقوا بها ليكون معكم غفور رحيم، أو لعله تلميح من الله فكأنه يقول: أنا غفرتُ لهم، فلم لا تغفرون أنتم؟!

- الموضع الثاني :قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾[١]، قال الزمخشري : (أي: هم الأخصاء بالغفران في حال الغضب، لا يغول الغضب أحلامهم كما يغول حلوم الناس ، والمجيء بـ«هم» وإيقاعه مبتدأ ، وإسناد «يَغْفِرُونَ» إليه لهذه الفائدة)[٢]، وذكر ابن عطية أنَّ في الآية حضًا على كسر الغضب، والتدرب في إطفائه؛لأنَّه جمهرة من جهنم وباب من أبوابها[٣].

أمَّا الغاية البلاغية من استعمال لفظ الغفران دون غيره، فقد أشار إليها المفسرون، على النحو الآتي: قال الفخر الرَّازي : (وَإِنَّمَا خَصَّ الْغَضَبَ بِلَفْظِ الْغُفْرَانِ؛ لِأَنَّ الْغَضَبَ عَلَى طَبْعِ النَّارِ، وَاسْتِيلَاؤُهُ شَدِيدٌ وَمُقَاوَمَتُهُ صَعْبَةٌ، فَلِهَذَا السَّبَبِ خَصَّهُ بِهَذَا اللَّفْظِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)[٤].

وقال زين الدين الرازي: (فإن قيل: كيف قال هنا: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [٥]، وقال في موضع آخر: «وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ»؟ . قلنا: معناه ومن يستر الذنوب من جميع الوجوه إلا الله، ومثل هذا الغفران لا يوجد إلا من الله تعالى)[٦].

ويلوح للباحث أنَّ الغاية البلاغية من استعمال لفظ الغفران مع هؤلاء يمكن أن تتلخص في:

أ- بما أنَّه في سياق الثناء على هؤلاء المؤمنين- ومنها قوله ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾[٧]- فكان لابد أن يذكر لهم

(١) - سورة الشورى، آية :٣٧ .

(٢) - الكشاف :٤/ ٢٣٣ .

(٣) - ينظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي(ت: ٥٤٢ هـ = ١١٤٨م)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ=١٩٩٣م : ٥/ ٣٥ .

(٤) - التفسير الكبير : ٢٧/ ١٥١ .

(٥) - سورة آل عمران، من الآية : ١٣٥.

(٦) - أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل : زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت:بعد ٦٦٦ هـ= بعد ١٢٦٨م)، تحقيق: د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودى، ط١، دار عالم الكتب المملكة العربية السعودية، الرياض، ١٤١٣هـ= ١٩٩١ م: ٥٢ .

(٧) - سورة الشورى، الآيتان : ٣٨ – ٣٩.

صفة عظيمة، تتمثل تلك الصفة في أنَّهم إذا ما تَمَلَّكَهُم الغضب فهم ليسوا كمن سواهم من الناس، بل إنَّهم وهم في تلك الحال يصدر منهم العفو مباشرة، وأي عفو هو!! إنَّه الغفران؛ أي: إنَّهم يمحون من نفوسهم تمامًا أثر إساءة غيرهم لهم، وهذا الأمر ليس بالهين؛ أعني محو اثر الإساءة من النفس مباشرة، فإنَّ من طبيعة النفس البشرية الغضب-كما أشار الإمام الرازي- ، وعند الغضب يقع الانتقام، أو على الأقل تُجازى السيئة بمثلها، وأعلى من ذلك كظم الغيظ وهنا يبقى في النفس غيظ ولكنه مكظوم؛ أي: لا تصدر له ردة فعل على الجوارح، ثُمَّ أعلى من ذلك كله الغفران، فكيف إذا وقع في لحظة الإساءة؟! لاشك أنه يكون أعظم درجة .

ب- كأنه يقول: هؤلاء الممدوحون هم الذين يسترون أخطاء الناس حتى عن أنفسهم، فلا يرون أخطاءهم.

الموضع الثالث: وهو بعد الموضع السبق بخمس آيات، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ وَالْمَعْنَى وَلَمَنْ صَبَرَ بِأَنْ لَا يَقْتَصَّ وَغَفَرَ ؛أي: فصرح بإسقاط العقاب والعتاب فمحا عين الذنب وأثره، وَتَجَاوَزَ ، فَإِنَّ ذلِكَ الصبر والتجاوز لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ؛يَعْنِي: أَنَّ عَزْمَهُ عَلَى تَرْكِ الِانْتِصَارِ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ الْجَيِّدَةِ، وإنَّ صبره ذلك وغفرانه ذنب المسيء إليه، لمن عزم الأمور التي ندب اللهُ إليها عباده، وعزم عليهم العمل به، فالصبر والتجاوز مع القدرة ابتغاء وجه الله وجزيل ثوابه من أفضل الأمور، وأصوب الأمور وهو محكها ومتقنها والحميد العاقبة منها[1].

وما قلناه في الآية السابقة نقوله هنا، فالقرآن الكريم يؤكّد هنا-بلام التوكيد، وإنَّ واللام الثانية- أنَّ ذلك النوع من العفو وهو "الغفران" من أفضل الأمور وأحبها إلى الله عزوجل، إذن فناسب ذكر أفضل الأمور وأحبها إلى الله أن يذكر أعلى أنواع العفو وأثقلها على النفس البشرية وهو الذي يتصف به الله سبحانه وهو المغفرة؛ أي: محو أصل الذنب وإزالة كلّ أثر له من النفس.

- الموضع الرابع: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾[2]، قال الطبري: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : قل يا محمد للذين صدّقوا الله واتبعوك، يغفروا للذين لا يخافون بأس الله ووقائعه ونقمه إذا هم نالوهم بالأذى والمكروه ؛ ليجزي الله هؤلاء الذين يؤذونهم من المشركين في الآخرة، فيصيبهم عذابه بما كانوا في الدنيا يكسبون من

(١) - ينظر : المحرر الوجيز : ٤٠/٥ ؛ التفسير الكبير:٢٧/ ١٥٦ ؛ نظم الدرر: ٦/ ٦٤٢ .

(٢) - سورة الجاثية، آية : ١٤.

الإثم، ثم بأذاهم أهل الإيمان بالله)[١].

أمّا سبب نزول الآية، فعن ابْنُ عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةِ عَطَاءٍ: يُرِيدُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ خَاصَّةً، وَأَرَادَ بِالَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ نَزَلُوا فِي غَزَاةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ عَلَى بِئْرٍ يُقَالُ لَهَا الْمُرَيْسِيعُ، فَأَرْسَلَ عَبْدُ اللَّهِ غُلَامَهُ لِيَسْتَقِيَ الْمَاءَ، فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ فَلَمَّا أَتَاهُ قَالَ لَهُ: مَا حَبَسَكَ؟ قَالَ: غُلَامُ عُمَرَ قعد على قفّ الْبِئْرِ فَمَا تَرَكَ أَحَدًا يَسْتَقِي حَتَّى مَلَأَ قِرَبَ النَّبِيِّ وَقِرَبَ أَبِي بَكْرٍ وَمَلَأَ لِمَوْلَاهُ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: مَا مَثَلُنَا وَمَثَلُ هَؤُلَاءِ إِلَّا كَمَا قِيلَ: سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ، فَبَلَغَ قَوْلُهُ عُمَرَ رضي الله عنه فَاشْتَمَلَ بِسَيْفِهِ يُرِيدُ التَّوَجُّهَ إِلَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ[٢].

وروى أبو عُبيد القاسم بن سلاّم عن ابن عباس أنها منسوخة بآيات القتال[٣]، ونقل الحارث بن أسد المحاسبي الإجماع على نسخها بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[٤].

ويرى الباحث أنَّ الغاية من الأمر بالغفران دون غيره من ألفاظ العفو؛ لأنَّ الله تعالى يريد من المؤمنين بربهم ألا ينشغلوا بهؤلاء، وأن يصدر منهم لهم الصفح التام لتبقى صدورهم سليمة، وجزاء هؤلاء عند الله في جميع الأحوال، ولنزيد ذلك وضوحًا نقول: بما أنَّ هذه الآية منسوخة بآية القتال كما يرى أكثر المفسرين فلعل القرآن الكريم استعمل لفظة « يغفروا «؛ لأجل أن يزيل المؤمنون كل ما في نفوسهم تجاه الكافرين؛ وذلك لأنَّ زمن القتال لم يأت بعد، فترك النفوس مشحونة في هذه المرحلة فيه خطر كبير على الصحابة –ولاسيَّما صحابيّ مثل سيدنا عمر رضي الله عنه وهو المعروف بغيرته على الدين- إذ قد يؤدي إلى التسرع والتسرع يؤدي إلى الفشل ، إذن لابدّ للمؤمنين أن يزيلوا من قلوبهم "يغفروا" كلّ أثر تجاه هؤلاء.. ويقابل ذلك ويؤكده أنَّه حين صدر الإذن بالقتال فإنَّه شحن تلك لنفوس بكل ما يحرضها عليه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ

(١) - تفسير الطبري: ٦٦/٢٢ .

(٢) - أسباب النزول للواحدي: ٣٩٣ .

(٣) - ينظر : الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز وما فيه من الفرائض والسنن: أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي (ت: ٢٢٤هـ=٨٣٨م)،دراسة وتحقيق: محمد بن صالح المديفر، مكتبة الرشد بالرياض، ١٤١٨هـ:١٩٠ .

(٤) - فهم القرآن ومعانيه: الحارث بن أسد المحاسبي، أبو عبد الله (ت: ٢٤٣ هـ = ٨٥٧ م)، تحقيق: حسين القوتلي،ط٢، دار الكندي، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ: ٤٥٠؛ والآية المذكورة من سورة الحج: ٣٩ .

رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[1]، فلنتأمل هنا كيف شحن النفوس وحرضها على قتال العدو بذكر:

أولاً: الظلم، فالتذكير به من أعظم الدوافع على الإقبال على القتال، وذلك بشحن النفوس وتذكيرها بما وقع عليها من هؤلاء .

ثانياً: الإخراج من الديار: وهو أعظم الظلم ، وتذكير الإنسان بذلك إنما هو لتذكيره بحرمته «داره» التي انتهكت واستلبت بغير حق، لا لشيء إلا لأنه يعبد الله عز وجل .

إذن القرآن كان حريصاً على الحفاظ على المؤمنين في تلك المرحلة فأوجب عليهم مغفرة إساءات الكافرين .

ويبدو لي أنه مما يصب في وجوب سرعة غفران المؤمنين للكافرين العدول عن استعمال فعل الأمر إلى الفعل المضارع، إذ كان المتوقع أن يقول "قل للذين آمنوا اغفروا" ولكنه قال "يغفروا" ؛ لأنَّ فعل الأمر يدل على أنَّ المأمور لم يأت ذلك الفعل بعد، وإنه سيشرع فيه بعد صدور الأمر له، لكن الفعل المضارع يدل على حدوث الفعل الآن واستمراره وهذا ما يريده القرآن الكريم : المسارعة في تنفيذ الأمر مباشرة .. وهذا التنفيذ المباشر للأمر الإلاهي يصب أيضا في تهدئة النفوس وتسكينها .

(١) - سورة الحج، الآيتان : ٣٩ – ٤٠.

المبحث الخامس : الاستغاثة

الاسْتغَاثَةُ: طَلبُ الغَوْثِ، وَهُوَ التَّخْلِيصُ من الشِّدةِ والنِّقْمَةِ، والعَوْنُ على الفَكَاكِ من الشّدائِدِ[١].

وعند طائفة من العلماء المغيث من أسماء الله تعالى: قال القرطبي: (ومعناه المدرك عباده في الشدائد إذا دعوه و مريحهم ومخلصهم، فيجب على كل مكلف أن يعلم ألا غياث ولا مغيث على الإطلاق إلا الله تعالى، وإنَّ كل غوث فمن عنده وإن كان جعل ذلك على يدي غيره، فالحقيقة له سبحانه ولغيره مجاز)[٢]، وقال: (ويجوز إجراؤه على العبد من غير خلاف)[٣].

وهو المنقذ من الشدائد الفادحة والكروب﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾[٤] ، فالمغيث يتعلق بالشدائد والمشقات، فهو المغيث لجميع المخلوقات عندما تتعسر أمورها وتقع في الشدائد والكربات[٥].

وقد وردت مشتقات « غوث» و «غيث» في القرآن الكريم تسع مرات، منها مرة واحدة فقط وصف بها المخلوق، وهي في قصَّة سيدنا موسى عليه السلام ، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾[٦] ، قال يحيى بن سلام : (قَتَادَةُ: الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ قِبْطِيٌّ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ « فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي

(١) - تاج العروس تاج العروس من جواهر القاموس: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي(ت: ١٢٠٥ هـ= ١٧٩٠م)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية : مادة (غوث): ٣١٤/٥ ؛ المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية بالقاهرة :إبراهيم مصطفى، و أحمد الزيات، و حامد عبد القادر، ومحمد النجار، ، دار الدعوة، القاهرة :باب الغين:٢/ ١٠٦٧؛ معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية :د. محمود عبد الرحمن عبد المنعم، دار الفضيلة، القاهرة، ١٤١٩ = ١٩٩٩م: ١٥٠/١ .

(٢) - الأسنى :٢٨٦/١ .

(٣) - الأسنى :٢٨٦/١ .

(٤) - سورة الأنعام، من الآية : ٦٣ .

(٥) - تفسير أسماء الله الحسنى: أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي (ت: ١٣٧٦هـ=١٩٥٦م)، تحقيق: عبيد بن علي العبيد،الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة،١٤٢١هـ: ٢٣٧-٢٣٨ .

(٦) - سورة القصص، آية : ١٥.

مِنْ شِيعَتِهِ» مِنْ جِنْسِهِ. « عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ » وَكَانَ الْقِبْطِيُّ يُسَخِّرُ الإِسْرَائِيلِيَّ لِيَحْمِلَ حَطَبًا لِمَطْبَخِ فِرْعَوْنَ، فَأَبَى، فَقَاتَلَهُ)[١]، ومعنى فَاسْتَغَاثَهُ : سَأَلَهُ أَنْ يُخَلِّصَهُ مِنْهُ وَاسْتَنْصَرَهُ عَلَيْهِ ليغيثَه بالإعانة كما ينبىءُ عنه تعديته بعلى[٢] .

وبناءً على ما مرَّ فإنَّه يبدو لي إنَّه قال «استغاثه» هنا ليُصوِّر لنا الحالة الشعورية التي تملَّكت ذلك الرجل إذ تمكّن الرعب من جوانحه، وضاقت عليه الأرض بما رحبت وتيقن أنَّه مقتول قطعًا بعد أن يذوق صنوف العذاب الشديد، ويلقى ضروب الأذى والتنكيل والإهانة؛ فلذلك نادى على سيدنا موسى عليه السلام نداء من تقطعت به السبل، فهو نداء بكلّ جوارحه، وملء مشاعره ، فلم تكن هناك من كلمة تختزل لنا ذلك المشهد وتدلّ عليه بدقة وترسمه لنا في صورة حية نابضة سوى «فاستغاثه» . ثُمَّ تكرَّرت هذه الاستغاثة في السورة نفسها مرة أخرى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۖ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ﴾[٣]، وهنا قد يتبادر إلى الأذهان سؤالٌ: لِمَ لَمْ يقل هنا «يستغيثه» وقال «يستصرخه» ؟

فالذي يبدو لي أنَّ الأمر هنا أيضًا إنَّما هو وصف للحالة الشعورية لذلك الرجل، فالاستصراخ دون الاستغاثة، فكأنَّ ذلك الرجل الإسرائيلي قد عرف تمامًا مدى غيرة سيدنا موسى u ، وسرعة نجدته لمن يستنجد به بمجرد أن يسمع صوت صراخه؛ لأنَّه جرَّبه في المرة الأولى، فلم يُجهد نفسه بالاستغاثة ، وإنَّما اكتفى برفع صوته مناديًا.

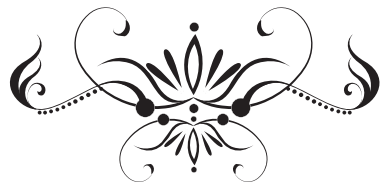

(١) - تفسير يحي بن سلام : يحي بن سلام بن أبي ثعلبة، التيمي بالولاء، من تيم ربيعة، البصري ثم الإفريقي القيرواني (ت: ٢٠٠ هـ = ٨١٥ م)، تقديم وتحقيق: الدكتورة هند شلبي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م: ٥٨٢/٢ .

(٢) - التفسير الكبير: ٢٤/ ٢٠٠؛ إرشاد العقل السليم :٧/٦ .

(٣) - سورة القصص، آية : ١٨ .

المبحث السَّادس : الإنعام

النِّعْمَةُ: اليدُ الصَّالحة، والصنيعةُ، والمنَّةُ، وما أُنْعِمَ به عليك، وأنعمتُ على فلَان أُنْعِم إنعاماً، فَأَنا مُنْعِم عَلَيْهِ، وَذَاكَ مُنْعَم عَلَيْهِ[١]، قال أبو هلال العسكري:(وَيُقَال أنعم عَلَيْهِ لِأَنَّهُ دخله معنى علو نعْمَة عَلَيْهِ فَهِيَ غامرة لَهُ وَلذَلِك يُقَال هُوَ غريق فِي النِّعْمَة وَلَا يُقَال غريق فِي الْإِحْسَان والإجمال)[٢]، وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ: أَنْعَمْتَ عَلَى فلانٍ أَيْ أَصَرْتَ إِلَيْهِ نِعْمةً[٣].

والمنعم من أسماء الله تعالى-عند بعض العلماء- ومعناه الذي يوصل النِّعمةَ والإحسانِ والخيرَ إلى الغير[٤]، قَالَ الْغَزالِيّ: (إن اعتقدت أنَّ لغير الله دخلاً فِي النِّعْمَة الْوَاصِلَة إليك، لم يَصح حمدك وَلَا يتم شكرك)[٥].

وقد ورد الفعل «نَعِم» ومشتقاته في القرآن الكريم مائة وأربعًا وأربعين مرةً، منها «أنعم» المزيد بهمزة التعدية سبع عشرة مرة، وقد أُطلق «أنعم» على المخلوق مرة واحدة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ﴾[٦]، عن علي بن الحسن أن النبي ﷺ كان قد أوحى الله إليه أن زيدا يطلق زينب وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها له فلما تشكى زيد للنبي ﷺ خلق زينب وأنها لا تطيعه وأعلمه بأنه يريد طلاقها قال له رسول الله ﷺ على جهة الأدب والوصية

(١) - ينظر : العين: ١٦١/٢ ؛ جمهرة اللغة: مادة (عمن): ٩٥٣/٢؛ الصحاح: مادة(نعم):٢٠٤١/٥؛ تاج العروس:مادة (نعم): ٣٣/ ٥٠٢ .

(٢) - الفروق اللغوية : ١٩٤ .

(٣) - النهاية في غريب الحديث والأثر :٨٣/٥ ؛ لسان العرب : مادة (نعم): ٦/ ٤٤٧٩ .

(٤) - ينظر: المفردات في غريب القرآن : ٨١٥ ؛ معجم اللغة العربية المعاصرة :د. أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت: ١٤٢٤هـ=٢٠٠٤م) بمساعدة فريق عمل، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م:٣/ ٢٢٤١ .

(٥) - لم أجد هذا النصّ في ما بين يدي من كتب الإمام الغزالي، وإنَّما وجدته في : التيسير بشرح الجامع الصغير: زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (ت: ١٠٣١ هـ = ١٦٢٢م)، ط٣، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م: ٣٨٢/٢ .

(٦) - سورة الأحزاب، آية : ٣٧.

اتق الله أي في أقوالك وأمسك عليك زوجك وهو يعلم أنه سيفارقها وهذا هو الذي أخفى في نفسه ولم يرد أن يأمره بالطلاق لما علم من أنه سيتزوجها وخشي رسول الله ﷺ أن يلحقه قول من الناس في أن يتزوج زينب بعد زيد وهو مولاه وقد أمره بطلاقها فعاتبه الله تعالى على هذا القدر من أن خشي الناس في أمر قد أباحه الله تعالى له وإن قال " أمسك " مع علمه أنه يطلق[١].

أمَّا معنى إنعام الله وإنعام رسولهﷺ ، فقد فسَّره الزجاج بقوله: :(معنى إنْعام الله تَعَالَى عَلَيْهِ هدايته إِلَى الْإِسْلَام، وَمعنى إنعامِ النَّبِي ﷺ إِعْتَاقه إِيَّاه من الرّقّ)[٢]، وعلى هذا القول معظم المفسرين .

قال القشيري: (أنعم الله عليه بأن ذكره وأفرده من بين الصحابة باسمه.ويقال: أنعم الله عليه بإقبالك عليه وتبنّيك له. ويقال: بأن أعتقته، ويقال: بالإيمان والمعرفة. وأنعمت عليه بالعتق وبأن تبنّيته)[٣].

وحاول المراغي بيان الغاية من التعبير بلفظ "أنعمت" ، فقال: (وفى التعبير بأنعمت عليه إيماء إلى وجه العتب بذكر الحال التي تنافى ما صدر منه عليه السلام من إظهار خلاف ما في نفسه، إذ هذا إنما يكون حين الاستحياء والاحتشام، وكلاهما مما لا ينبغي أن يكون مع زيد مولاه)[٤].

ويبدو لي أنَّه قال "وأنعمت عليه " لما يأتي: لبيان مقدار فضل رسول الله ﷺ على ذلك الصحابي إذ رعاه واحتضنه وأعتقه، ولعلَّ هذا ما أراد المراغي قوله في النَّص السابق .

لبيان منزلة رسول اللهﷺ، العظمى وأخلاقه الكريمة فمع أنه صاحب اليد الطولى على ذلك الصحابي، وصاحب الإنعام عليه حين أوصل إليه ما أنعم به عليه، وصاحب الإكرام والفضل، فإنه استحيا أن يخبره بقدر الله سبحانه، ولتتضح لنا عظمة أخلاق رسول الله أكثر نقول: إنَّ الإنسان إن كان ذا يد وفضل على آخر-ولاسيما إن كان ذلك الفضل يتمثل في الرعاية والاحتضان والعتق- فإنه يرى لنفسه عليه حقًا، فلا يتردّد في أمره بشيء ولا يشك في الاستجابة السريعة ،

(١) - المحرر الوجيز : ٤/ ٣٨٦ .

(٢) - معاني القرآن: ٤/ ٢٢٩ .

(٣) - لطائف الإشارات = تفسير القشيري: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت: ٤٦٥ هـ= ١٠٧٢م) تحقيق: إبراهيم البسيوني، ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر: ١٦٣/٣ .

(٤) - تفسير المراغي: أحمد بن مصطفى المراغي(ت:١٣٧١ هـ= ١٩٥٢م)، ط١، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٦٥ هـ- ١٩٤٦م: ٢٢/ ١٤ .

فكيف إن كان ذلك الأمر من الله تعالى؟! لاشك أن صاحب الفضل يُقَدَّم عليه دون أن تطرف له عين، ولكنَّ سيدنا رسول الله سما بخلقه العظيم فوق تلك الاعتبارات كلها، فلم يخبره بذلك حتى أَنْزل الله تعالى في ذلك قرآنا يتلى؛ ليبين الحكم الشرعي من جانب؛ وليبين عظمة رسول الله ﷺ، من جانب آخر.

للإشارة إلى أن إنعام الله عزوجل وإنعام رسولهﷺ واحد، فإن قيل: لكن المفسرين قد فرقوا حين قالوا: إنعام الله الإسلام، وإنعام رسوله بالعتق!، قلت: إنَّ ذلك الصحابي لم يتلق الإسلام عن الله مباشرة وإنما تعلمه من رسول الله بتقدير الله، فرسول الله هو من هداه إلى هذه النعمة، فإن قيل فَلِمَ لَمْ يكتفِ بالقول: وأنعمت عليه؟ قلت: لأنَّ إنعام الله قد تمثل في رسول الله فهو النعمة العظمى على الخلق .

إنَّ حذف مفعول " أنعم " هنا يفيد الشمول والعموم، فكأنَّ الله يقول: إنَّ نعمي على عبدي لا حصر لها، وإنَّ نعمك يا أيها الرسول على ذلك الصحابي مما لا يحيط به فلك العبارة، ولا يمكن أن يسطر في الطروس، ولا تسعه الكتب وإنما يكتفي فيه بالإشارة عن العبارة ، فإن قيل قد حصر أكثر المفسرين إنعام رسول الله عليه بالعتق؟، قلت: الواقع غير ذلك، فمن أبرز نعم رسول الله ﷺ عليه:

إنَّ رسول الله ﷺ هو من زوَّجه، فأوصل نعمة الزواج إليه بنفسه[١].

إنَّ رسول الله ﷺ ربَّاه[٢] .

إنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ فِي حَدِيثِ ابْنَةِ حَمْزَةَ: أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلانَا[٣]، وهذا بلا شكّ تكريم برفع مكانته المعنوية والاجتماعية، إذ كلّ مخلوق يتمنى أن تكون له نسبة إلى رسول الله ﷺ مهما كانت ولو بالاتباع، فكيف بجعله أخًا؟!، وجعله مولىً؟!

(١) - ينظر : أسد الغابة في معرفة الصحابة : أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (ت: ٦٣٠ هـ= ١٢٣٣م)، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م: ١/ ٢١٥ .

(٢) - ينظر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب : أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (ت: ٤٦٣ هـ= ١٠٧١م)، تحقيق: علي محمد البجاوي،ط١، دار الجيل، بيروت١٤١٢ هـ- ١٩٩٢م: ٢/ ٥٤٣ .

(٣) - صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه و سلم وسننه وأيامه): محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي(ت: ٢٥٦هـ= ٨٧٠م)، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، ط٣، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م: ٤/ ١٥٥١؛ رقم الحديث: ٤٠٠٥.

المبحث السَّابع : الإغناء

غَنِيَ بِهِ، كرَضِيَ، غِنًى ، بالكَسْرِ مَقْصورٌ في المال، واسْتَغْنَى واغْتَنَى "وتغَانَى" وتَغَنَّى: كُلُّ ذلكَ بمعْنَى صارَ " غَنِيًّا، فَهُوَ " غَنِيٌّ ومُسْتَغْنٍ[1]، والإغناء مصدر :أغنى، وهو جعل الإنسان غنيًا، والْغَنِيّ هُوَ الَّذِي لَا يحْتَاج إِلَى شَيْء.

وقد بيَّن أبو هلال العسكري معنى الغنى بدقَّة، حين تناول الفرق بين الجدة واليسار والغنى، فقال: (إنَّ الجدة كثرة المال فقط يقال رجل واجد أي كثير المال، والغنى يكون بالمال وغيره من القوة والمعونة وكل ما ينافي الحاجة، وقد غنى يغني غنى)[2].

والغنيُّ من أسماء الله تعالى، وقد شرحه الإمام الغزالي بقوله: (الْغَنِيّ هُوَ الَّذِي لَا تعلق لَهُ بِغَيْرِهِ لَا فِي ذَاته وَلَا فِي صِفَات ذَاته بل يكون منزها عَن العلاقة مَعَ الأغيار فَمن تتَعَلَّق ذَاته أَو صِفَات ذَاته بِأَمْر خَارج من ذَاته يتَوَقَّف عَلَيْهِ وجوده أَو كَمَاله فَهُوَ فَقير مُحْتَاج إِلَى الْكسْب وَلَا يتَصَوَّر ذَلِك إِلَّا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَالله عز وَجل هُوَ الْمُغنِي أَيْضا وَلَكِن الَّذِي أغناه لَا يتَصَوَّر أَن يصير بإغنائه غَنِيا مُطلقًا فَإِن أقل أُمُوره أَنه مُحْتَاج إِلَى الْمُغنِي فَلَا يكون غَنِيا بل يَسْتَغْنِي عَن غير الله بِأَن يمده بِمَا يحْتَاج إِلَيْهِ لَا بِأَن يقطع عَنهُ أصل الْحَاجة والغني الْحَقِيقِيّ هُوَ الَّذِي لَا حَاجَة لَهُ إِلَى أحد أصلا وَالَّذِي يحْتَاج وَمَعَهُ مَا يحْتَاج فَهُوَ غَنِي بالمجاز وَهُوَ غَايَة مَا يدْخل فِي الْإِمْكَان فِي حق غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَأما فقد الْحَاجة فَلَا وَلَكِن إِذا لم يبْق حَاجَة إِلَّا إِلَى الله تَعَالَى سمي غَنِيا)[3].

وقد أوجز ابن الأثير كلَّ ذلك الشرح بقوله: (فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى «الغَنِيّ» هُوَ الَّذِي لَا يَحْتاج إِلَى أَحَد فِي شَيْءٍ، وكُلّ أَحَدٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَهَذَا هُوَ الغَنِيُّ المُطْلَق، وَلَا يشارِك اللهَ تَعَالَى فِيهِ غَيْرُهُ)[4].

وقد ورد "غني" ومشتقاته في القرآن الكريم(٧٣مرة) ثلاثٌ وسبعون مرةً، وصف فيها المخلوق بأنه مُغْنٍ مرة واحدة، وهو سيدنا رسول الله ﷺ، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ

(١) - ينظر : العين: ٤٥٠/٤ ؛ الصحاح: مادة (غـني):٢٤٤٩/٦؛ لسان العرب: مادة (غني): ٣٣٠٨/٥؛ تاج العروس:٣٥/ ١٨٩ .

(٢) - الفروق اللغوية : ١٧٥ .

(٣) - المقصد الأسنى : ١٤٤ .

(٤) - النهاية في غريب الحديث والأثر :٣٩٠/٣ .

ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[1]، قال الزَّجَّاج: (قيل إنهم كانوا هَمُّوا بقتل رسول اللَّه ﷺ وأنهم كانوا اثني عَشَر رجُلاً عزموا على أن يقفوا له بعقبة على طريقه، ويغتالوه، فأعلمه الله ذلك.فلما بلغ إليهم أمرَ مَنْ نحاهم عن طريقه، وسماهم رَجُلاً رجُلاً.فهذه من أعظم آياته، لأن الأمر إنما عُلِمَ في قصتِهم بالوحي. وإنما قيل أغناهم اللَّه ورسوله؛ لأنَّ أموَالهم كثرت من الغنائم، فكان سبب ذلك رسولُ الله ﷺ)[2]، وذهب الزمخشري إلى نحو ذلك ، ولكنَّه عمَّم، فقال: (وذلك أنهم كانوا حين قدم رسول الله ﷺ المدينة في ضنك من العيش لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة فأثروا بالغنائم وقتل للجلاس مولى، فأمر رسول الله ﷺ بديته اثني عشر ألفاً فاستغنى)[3].

وهذا الأسلوب أحد فنون البديع، وهو تأكيد المدح بما يشبه الذم[4]، وقد سمَّاه عبد الرحمن الميداني: تَأْكيد الْفِكْرة بما يُشْبِهُ تقرير ضدّها[5]، وقد عقَّبَ عليه بقوله: (إذ من شأن الإغناء أن يكون سبب حُبّهم والباعث على طاعتهم، لا أن يكون سبب نقمتهم، فجاء ما بعد الاستثناء مؤكِّداً عدَمَ وجود سبب لنقمتهم)[6].

ويبدو لي أنه قال أغناهم هنا ولم يقل أعطاهم ؛ لأنَّه يريد أن يبين مدى خبث ما انطوت عليه نفوس المنافقين، فمع أنَّ رسول الله ﷺ قد بَدَّل حالهم على من الضيق إلى السعة، ومن العسر إلى اليسر، ومن الحاجة إلى الاكتفاء، ثم الاستغناء عن الناس حتى أنَّه أعطاهم عطاء يستغنون به عن أيِّ مسألة، فهم يحقدون عليه وعلى أصحابه، وتلك أسوأ صفات الإنسان؛ وذلك لأنَّه من المعتاد أنَّ الإنسان يُحِبُّ من يُحسن إليه، فكيف بمن يغنيه؟! ، قطعا إنّه سيدين له بالولاء طول عمره، غير

(١) - سورة التوبة، آية : ٧٤ .

(٢) - معاني القرآن : ٢/ ٤٦١ .

(٣) - الكشاف :٢/ ٢٧٨ .

(٤) - الإتقان في علوم القرآن : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١ هـ=١٥٠٥م)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ= ١٩٧٤م: ٣/ ٣٠٤ .

(٥) - البلاغة العربية: عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (ت: ١٤٢٥هـ=٢٠٠٥م)، ط١، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م:٢/ ٣٩٢ .

(٦) - المرجع نفسه : ٢/ ٣٩٥ .

أنَّ هؤلاء المنافقين قد خالفوا الصفات البشرية حتى في هذه الغريزة-غريزة حبّ المحسن[١]- ؛ لما انطوت عليه نفوسهم من النفاق، وسورة التوبة زاخرة بذكر صفات هؤلاء، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [٢]،وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [٣]، فناسب ذلك الخطاب القوي لهم أن يذكر شدّة إحسان رسول الله ﷺ إليهم-إذ لم يكن رسول الله معطيًا لهم فحسب بل كان مغنيًا- ومقابلتهم ذلك الكرم الواسع بالإساءات الكبيرة، بل محبَّة الانتقام، والسَّعْي إليه .

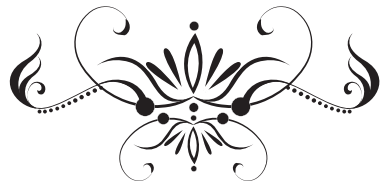

(١)* - عَنْ عَبْدِ اللَّه بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((إِنَّ الْقُلُوبَ جُبِلَتْ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا، وَبُغْضِ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهَا)). شعب الإيمان: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، البيهقي (ت: ٤٥٨ هـ= ١٠٦٦م)، تحقيق: د.عبد العلي عبد الحميد حامد، ط١، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣ م:٣٠٧/١١، رقم الحديث: ٨٥٧٤ .

(٢) -سورة التوبة، الآيتان : ٦١ - ٦٢ .

(٣) - سورة التوبة، الآيات: ٦٤ – ٦٧ .

المبحث الثَّامن : القنوت

ذكر ابن سيده المعاني اللغوية للقنوت، وهي[١]:

الْقُنُوت: الْإِمْسَاك عَن الْكَلَام.

الدُّعَاء فِي الصَّلَاة.

والقنوت: الْخُشُوع وَالْإِقْرَار بالعبودية.

وَالْقِيَام بِالطَّاعَةِ الَّتِي لَيْسَ مَعهَا مَعْصِيّة.

وَقيل: الْقيام، وَزعم ثَعْلَب: أَنه الأَصْل.

وَقيل: إطالة الْقيام، وَفِي التَّنْزِيل:﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴾[٢].

والقنوت: الطَّاعَة.

وقنت لَهُ: ذلَّ.

وقنتت الْمَرْأَة لبعلها: أقرَّت ؛أَي: سكنت وانقادت.

وقال الزبيدي: (فحقيقةُ القُنُوتِ: العِبَادَةُ و الدُّعَاءُ لله عزّ وجَلّ فِي حالِ (القِيَام) ، ويَجُوزُ أَن يَقَع فِي سائِرِ الطّاعَة؛ لأَنّه إِن لم يَكُنْ قِيَامٌ بالرِّجْلَيْن، فَهُوَ قيامٌ بالشيْءِ بالنِّيَّةِ)[٣].

وقد ورد لفظ القنوت ومشتقاته في القرآن الكريم ثلاث عشرة مرة، وقد أُريد منها القنوت لرسول الله ﷺ مرة واحدة، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَـٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾[٤]، قال يحي بن سلام: (أَيْ: وَمَنْ يُطِعْ مِنْكُنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِيمَا حَدَّثَنِي قُبَاثُ ابْنُ رُزَيْنٍ اللَّخْمِيُّ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَلَيْسَ فِيهِ اخْتِلافٌ)[٥].

قالت الدكتورة عائشة بنت الشاطئ : (وتفسير القنوت بالإقرار لا يكون إلا على وجه تقريب لا يفوتنا فيه أن الإقرار يغلب أن يصدر على وجه الإلزام، وقد يكون عن تَقِيَّة وخوف، ولا

(١) - المحكم والمحيط الأعظم: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي(ت: ٤٥٨ هـ = = ١٠٦٦م)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م: مادة (قنت):٣٣٨/٦ ؛المخصص:٥٦/٤ .

(٢) - سورة البقرة، من الآية : ٢٣٨ .

(٣) - تاج العروس: 45/٥ .

(٤) - سورة الأحزاب، الآية : ٣١.

(٥) - تفسير يحي بن سلام:٧١٥/٢ .

يكون القنوت إلا عن خشوع صادق. يؤيد هذا الملحظ أن القرآن لم يستعمل القنوت إلا لله ورسوله، والقانتون والقانتات فيه هم الصفوة المؤمنون العابدون وجوهر الفرق أن القنوت من أفعال القلوب كالخشوع والتقوى، وليس الإقرار كذلك)[١].

ويرى الباحث - لأجل الوقوف على الغاية من استعمال لفظ القنوت دون الطاعة- ، لابدَّ أنْ نعرف سبب نزول الآية، فقد رَوَى عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: ((دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَوَجَدَ النَّاسَ جُلُوسًا بِبَابِهِ لَمْ يُؤْذَنْ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ، قَالَ: فَأُذِنَ لِأَبِي بَكْرٍ فَدَخَلَ، ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ فَاسْتَأْذَنَ فَأُذِنَ لَهُ، فَوَجَدَ النَّبِيَّ ﷺ جَالِسًا حَوْلَهُ نِسَاؤُهُ وَاجِمًا سَاكِتًا. قَالَ:- فَقَالَ وَاللَّهِ لَأَقُولَنَّ شَيْئًا أُضْحِكُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ رَأَيْتَ بِنْتَ خَارِجَةَ سَأَلَتْنِي النَّفَقَةَ فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَوَجَأْتُ عُنُقَهَا، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ:" هُنَّ حَوْلِي كَمَا تَرَى يَسْأَلْنَنِي النَّفَقَةَ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى عَائِشَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا، وَقَامَ عُمَرُ إِلَى حَفْصَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا، كِلَاهُمَا يَقُولُ: تَسْأَلْنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ!! فَقُلْنَ: وَاللَّهِ لَا نَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا أَبَدًا لَيْسَ عِنْدَهُ. ثُمَّ اعْتَزَلَهُنَّ شَهْرًا أَوْ تِسْعًا وَعِشْرِينَ. ثُمَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ:" يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ"- حَتَّى بَلَغَ-" لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً"))[٢].

فخير رسول الله ﷺ أزواجه فاخترنه، ولَمَّا اخْتَارَ نِسَاءُ النَّبِيِّ ﷺ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ شَكَرَهُنَّ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ تَكْرِمَةً لَهُنَّ:) لَا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ)[٣] وَبَيَّنَ حُكْمَهُنَّ عَنْ غَيْرِهِنَّ فَقَالَ: (وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً)[٤]. وَجَعَلَ ثَوَابَ طَاعَتِهِنَّ وَعِقَابَ مَعْصِيَتِهِنَّ أَكْثَرَ مِمَّا لِغَيْرِهِنَّ فَقَالَ: (يَا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ)[٥].

---

(١) - الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق : د.عائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ (ت: ١٤١٩هـ=١٩٩٨م)، ط٣، دار المعارف، القاهرة : ٤٠٥.

(٢) - ؛ صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم): مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ= ٨٧٥م)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ٢/ ١١٠٤، رقم الحديث: ١٤٧٨؛ والآيتان من سورة الأحزاب:٢٨-٢٩ .

(٣) -سورة الأحزاب، من الآية: ٥٢.

(٤) - سورة الأحزاب،من الآية: ٥٣.

(٥) - سورة الأحزاب،من الآية:٣٠ .

وبناء على ما مرَّ فقد ظهر لي أنَّ الغاية من استعمال لفظ القنوت دون غيره ليدلَّ على ما يأتي:

١- الصمت في حضرة رسول الله ﷺ ، وترك ابتدائه بأيِّ حديث أو طلبٍ كان؛ لأنَّه ﷺ أرحم بالناس من الناس؛ ولأنَّه خير الناس لأهله، فليس من الممكن أن يُغفل -حاشاه- أيَّ حقٍّ من حقوق أهله .

٢- إنتظار أمره وترقُّب ما يصدر عنه من أوامر وتوجيهات، مع السكون والهدوء التامَّينِ بين يديه، والانقياد المطلق والطاعة الكاملة بلا تقصير ولا نقص ، والتزام أعظم جوانب الأدب وأعلاها؛ لأنَّ حركاته وسكناته ﷺ كلّها من الله تعالى .

٣- التذلّل له ﷺ .

الخاتمة وأهمّ النَّتائج

ظهر لي أنَّ القرآنَ الكريمَ قد سمَّى الملك ربًّا في سورة يوسف؛ لأنَّ المصريين القدماء كانوا يسمّون الملك ربًّا، وإنَّ سيدنا يوسف عليه السلام قال عن العزيز إنَّه ربّي؛ لأنَّه أراد ذكر ما امتنَّ به عليه من التربية والعناية وحسن الصحبة .

وتبيَّنَ أنَّ سيدنا عيسىﷺ قد وصف نفسه بأنَّه يخلق؛ للتأكيد على أنَّ فعله ذلك إنَّما هو صلاحية وهبها الله إيَّاه؛ لتأكيد نبوَّته؛ لأنَّه سبحانه وحده هو خالق كلِّ شيء. وإنَّ القرآن الكريم سمَّى اتخاذ الكفَّار آلهةً أصنامًا خلقًا؛ للتأكيد على أنَّ ذلك الفعل إنَّما هو افتراء وابتداع لأمرٍ لم يسبقهم إليه أحدٌ من الناس.

واتَّضح أنَّ القرآن الكريم قد وصف الإنسان بأنَّه يرزق في سياق ذكر النفقة على الرضيع؛ ترقيقًا للقلوب، وللإشارة إلى ضعفه وأمِّه عن أسباب الكسب، واعتماده على ما يناله من الأب.. في حين أمر ذوي الإرث بالرزق؛ ليتخلَّقوا بأخلاق الله الذي يعطي بلا منٍّ ولا انتظار جزاء من المخلوقين. أَمَّا أصحاب الكهف فإنَّهم حين طلبوا من أحدهم طعاما وسمَّوه رزقًا؛ لكون ما سيأتيهم من الطعام لا يعلمون ما طبيعته ونوعه .

وخلصتُ إلى أنَّ المؤمنين قد خُصّوا بالأمر بالمغفرة لمن منعهم من أهليهم من الهجرة ليُزيلوا تمامًا كلّ ما في نفوسهم من غضب أو ضغينة على أُسرهم، فتعود الأُلفة بين الأُسر ويعيشوا في سعادة وهناء وسكون..وكذلك أُمروا بمحو كلّ ما في نفوسهم تجاه الكافرين-في مرحلة من مراحل الدعوة-؛ لأنَّ الإذن الإلاهي بالقتال لم يصدر بعد..كماَ أثنى القرآن العظيم ثناءً عظيمًا على اللذين"يغفرون"؛ أي: يمحون من نفوسهم كلَّ ضغينة لحظة غضبهم، وهذا الثناء جاء متناسبًا مع منزلة عملهم .

وظهر لي أَنَّ القرآن الكريم قد سمَّى المنادي على سيدنا موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مستغيثًا؛ لتصوير الحالة الشعورية عنده حين ضاقت عليه الأرض بما رحبت، ولم يجد له ملجأً ولا معينًا ولا مغيثًا إلا سيدنا موسى عليه السلام .

وتبيَّنَ أنَّ القرآن الكريم قد سمَّى رسولَ الله ﷺ منعمًا لتصوير مدى عظمة خلقه العظيم حين استحيا ممَّن كانت له عليه اليد الطولى والفضل العظيم-وهو زيد بن حارثة- من أن يخبره بقضاء الله .

وخلصتُ إلى أنَّ القرآن الكريم قد وصف رسول الله ﷺ بأنَّه مغنيًا في سياق بيان مدى عظمة رسول الله ﷺ، ولؤم المنافقين حين نالوا بسبب رسول الله ﷺ من الأموال ما يغنيهم عن الناس ومع ذلك فهم حانقون عليه، مالئين قلوبهم غيظًا وحقدًا .

واتَّضح أنَّ القرآن الكريم حين أمر نساء رسول الله ﷺ بالقنوت له فإنَّه أراد به منهنَّ كلَّ ما تحمله تلك الكلمة من معان ودلالات وظِلال، كالصمت والسكون في حضرته انتظارًا لأمره، والتذلل والخضوع التامّين بين يديه، وإظهار الانقياد والتسليم المطلقين اللذين لا يشوبهما أيّ نوع من أنواع الخروج عن أمره ظاهرًا وباطنًا .

المصادر والمراجع

بعد القُرآنِ الكريم .

أوَّلاً: المصادر:

اتفاق المباني وافتراق المعاني: سليمان بن بنين بن خلف بن عوض، تقيّ الدين، الدقيقي المصري (ت:٦١٣هـ= ١٢١٦م)، تحقيق: يحيى عبد الرؤوف جبر، ط١، دار عمار، الأردن، ١٤٠٥هـ١٩٨٥م .

الإتقان في علوم القرآن : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١ هـ=١٥٠٥م)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ= ١٩٧٤م.

أحكام القرآن: القاضي أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد الأزدي البصري ثم البغدادي المالكي الجهضمي (ت: ٢٨٢ هـ= ٨٩٦ م)، تحقيق: عامر حسن صبري، ط١، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢٦هـ=٢٠٠٥م.

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم(تفسير أبي السعود): أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت: ٩٨٢هـ=١٥٧٤م)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

أساس البلاغة : أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله ، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

أسباب نزول القرآن : أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري الشافعي (ت:٤٦٨هـ= ١٠٧٦م)، تحقيق: كمال بسيوني زغلول، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١ هـ.

الاستيعاب في معرفة الأصحاب: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي(ت: ٤٦٣ هـ= ١٠٧١م)، تحقيق: علي محمد البجاوي،ط١، دار الجيل، بيروت١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م.

أسد الغابة في معرفة الصحابة : أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (ت:٦٣٠هـ= ١٢٣٣م)، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاريّ القرطبيّ(ت:٦٧١هـ= ١٢٧٣م)، ضبط النص وشرح مادَّته اللغوية: د.محمد حسن جبل، خَرَّجَ أحاديثه وعَلَّقَ عليه:طارق أحمد محمد، ط١، دار الصحابة للتراث، طنطا ، ١٤١٦هـ=١٩٩٥م.

أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل : زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت:بعد ٦٦٦ هـ= بعد ١٢٦٨م)، تحقيق: د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودى، ط١، دار عالم الكتب المملكة العربية السعودية، الرياض، ١٤١٣هـ= ١٩٩١م.

أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٩١هـ= ١٢٩٢م)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٨ هـ.

بحر العلوم: أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي(ت: ٣٧٥هـ= ٩٨٥م)، تحقيق: د.محمود مطرجي، ط١، دار الفكر، بيروت.

البحر المحيط :محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي(ت: ٧٤٥هـ= ١٣٤٤م)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي(ت:١٢٢٤هـ= ١٨٠٩م)، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي، القاهرة.

تأويل مشكل القرآن: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت:٢٧٦هـ=٨٨٩م)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.

تاج العروس من جواهر القاموس: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض الملقّب بمرتضى الزَّبيدي(ت: ١٢٠٥ هـ= ١٧٩٠م)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

التعريفات : علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت: ٨١٦هـ= ١٤١٣م)، تحقيق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، ط١،دار الكتب العلمية بيروت، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

تفسير أسماء الله الحسنى: أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج، تحقيق:أحمد يوسف الدقاق، دار الثقافة العربية .

تفسير القرآن :أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي(ت: ٦٦٠هـ= ١٢٦٢م)، تحقيق: د.عبد الله بن إبراهيم الوهبي، ط١، دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٦هـ= ١٩٩٦م.

تفسير القرآن العظيم (ابن كثير): أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي(ت: ٧٧٤ه= ١٣٧٣م)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ.

تفسير مجاهد : أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي (ت:١٠٤هـ=٧٢٢م)، تحقيق: د.محمد عبد السلام أبو النيل، ط١، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر،١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

تفسير مقاتل بن سليمان : أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء البلخي(ت:١٥٠ هـ= ٧٦٧م)، تحقيق: أحمد فريد ، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤ هـ= ٢٠٠٣ م.

تفسير يحي بن سلام : يحي بن سلام بن أبي ثعلبة التيمي بالولاء، من تيم ربيعة، البصري ثم الإفريقي القيرواني (ت:٢٠٠هـ= ٨١٥م)، تقديم وتحقيق: د. هند شلبي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م.

تنوير المقباس من تفسير ابن عباس : ينسب: لعبد الله بن عباس - رضي الله عنهما – (ت: ٦٨ هـ= ٦٨٧م)، جمعه: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت: ٨١٧هـ= ١٤١٥ م)،ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

تهذيب اللغة: أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي(ت: ٣٧٠هـ=٩٨١م)، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠١م.

التيسير بشرح الجامع الصغير: زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري(ت: ١٠٣١هـ= ١٦٢٢م)، ط٣، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي(ت:٦٧١هـ=١٢٧٣م)، تحقيق: هشام سمير البخاري، ط١، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣ هـ= ٢٠٠٣م.

جامع البيان في تأويل القرآن : أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي الطبري(ت:٣١٠هـ= ٩٢٣م). تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

جمهرة اللغة: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت:٣٢١هـ= ٩٣٣م)، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧م.

الزاهر في معاني كلمات الناس: أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الأنباري (ت:٣٢٨هـ=٩٤٠م)، ط١، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٢ هـ-١٩٩٢م.

سنن ابن ماجه: أبو عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني (ت:٢٧٣هـ= ٨٨٧م)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

سنن الترمذي " الجامع الصحيح ": أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك

الترمذي(ت:٢٧٩هـ=٩١٠م)، تحقيق: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م.

شعب الإيمان: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْ جِردي الخراساني البيهقي (ت: ٤٥٨ هـ= ١٠٦٦م)، تحقيق: د.عبد العلي عبد الحميد حامد، ط١، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.

الصحاح "تاج اللغة وصحاح العربية" : أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت:٣٩٣هـ= ١٠٠٣م)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.

صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه و سلم وسننه وأيامه): محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي(ت: ٢٥٦هـ=٨٧٠م)، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، ط٣، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم): مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري (ت:٢٦١هـ= ٨٧٥م)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الفروق اللغوية : أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري(ت: نحو ٣٩٥هـ=١٠٠٤م)، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.

الفلك الدائر على المثل السائر (مطبوع بآخر الجزء الرابع من المثل السائر): عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد، أبو حامد، عز الدين (ت: ٦٥٦هـ= ١٢٥٨م)، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ، القاهرة.

فهم القرآن ومعانيه: أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي(ت: ٢٤٣ هـ= ٨٥٧م)، تحقيق: حسين القوتلي،ط٢، دار الكندي، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ.

الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي(ت: ٥٣٨هـ= ١١٤٣م)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية : أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، الحنفي (ت: ١٠٩٤م =١٦٨٣م)، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت.

لباب التأويل في معاني التنزيل"تفسير الخازن": علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر

الشيحي أبو الحسن المعروف بالخازن (ت: ٧٤١هـ=١٣٤١م)، تحقيق: محمد علي شاهين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ.

اللباب في علوم الكتاب : أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (ت: بعد٨٨٠هـ= ١٤٧٥م)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩ هـ-١٩٩٨م.

لسان العرب : أبو الفضل محمد بن مكرم بن على، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي(ت:٧١١هـ=١٣١١م)، تحقيق: عبد الله علي الكبير، و محمد أحمد حسب الله، و هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة.

لطائف الإشارات(تفسير القشيري): عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري(ت:٤٦٥ هـ= ١٠٧٢م) تحقيق: إبراهيم البسيوني، ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر .

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي(ت:٥٤٢ هـ= ١١٤٨م)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ=١٩٩٣م.

المحكم والمحيط الأعظم: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي(ت: ٤٥٨ هـ= ١٠٦٦م)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

المخصص: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت،١٤١٧ه ـ=١٩٩٦م.

معالم التنزيل في تفسير القرآن(تفسير البغوي): أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي(ت:٥١٠هـ= ١١٢٢م)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠ هـ.

معاني القرآن : للفراء أبي زكريا يحي بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (ت:٢٠٧ هـ= ٨٢٢م) ، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، و محمد علي النجار، وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي،ط١، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر.

معاني القرآن : أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد (ت: ٣٣٨ هـ= ٩٥٠م)، تحقيق: محمد علي الصابوني، ط١، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٩هـ.

معاني القرآن وإعرابه: أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج (ت:٣١١هـ=٩٢٣م)، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨م.

مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي(ت:

٦٠٦هـ=١٢١٠م)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

المفردات في غريب القرآن : أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت:٥٠٢ هـ= ١١٠٨م)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط١، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، ١٤١٢ هـ.

مقاييس اللغة : أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (ت: ٣٩٥هـ=١٠٠٤م)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت: ٥٠٥ هـ= ١١١١م)، تحقيق:بسام عبد الوهاب الجابي، ط١، الجفان والجابي – قبرص، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧ م.

الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز وما فيه من الفرائض والسنن: أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي(ت:٢٢٤هـ=٨٣٨م)، دراسة وتحقيق: محمد بن صالح المديفر، مكتبة الرشد بالرياض، ١٤١٨هـ.

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي(ت:٨٨٥ هـ=١٤٨٠م)، تحقيق:عبد الرزاق غالب المهدي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥ه=١٩٩٥م.

النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام : أحمد محمد بن علي بن محمد الكَرَجي القصَّاب (ت: نحو ٣٦٠هـ=٩٧١م)، تحقيق: علي بن غازي التويجري وآخرون، ط١، دار القيم، دار ابن عفان، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م.

النكت والعيون: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي بالماوردي(ت:٤٥٠هـ= ١٠٥٨م)، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت.

النهاية في غريب الحديث والأثر: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري(ت: ٦٠٦ هـ= ١٢١٠ م) تحقيق: طاهر أحمد الزاوي و محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية ، بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير(ت: ٦٣٧هـ =١٢٣٩م)، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة.

ثانيًا: المراجع :

الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق : د.عائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ (ت: ١٤١٩هـ=١٩٩٨م)، ط٣، دار المعارف، القاهرة .

الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه عند أهل السنة والجماعة :عبد الله بن عبد الحميد الأثري، مراجعة وتقديم: د.عبد الرحمن بن صالح، ط١، مدار الوطن للنشر، الرياض، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م.

البلاغة العربية: عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (ت: ١٤٢٥هـ=٢٠٠٥م)، ط١، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م.

تفسير أسماء الله الحسنى: أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي (ت: ١٣٧٦هـ=١٩٥٦م)، تحقيق: عبيد بن علي العبيد،الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة،١٤٢١هـ.

تفسير المراغي: أحمد بن مصطفى المـراغي(ت:١٣٧١هـ=١٩٥٢م)، ط١، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦م.

زهرة التفاسير : محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (ت:١٣٩٤هـ=١٩٧٤م)، دار الفكر العربي، بيروت.

في ظلال القرآن : سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت:١٣٨٥هـ= ١٩٦٦م)، ط١٧ ، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ١٤١٢هـ.

المصطلحات الأربعة في القرآن: أبو الأعلى بن أحمد حسن المودودي (ت:١٣٩٩هـ=١٩٧٩م)، تقديم: محمد عاصم الحداد، تخريج: محمد ناصر الدين الألباني، ط١،لاهور ، ١٣٧٤ه- ١٩٥٥م.

معجم اللغة العربية المعاصرة :د. أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت: ١٤٢٤هـ=٢٠٠٤م) بمساعدة فريق عمل، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م.

معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية :د. محمود عبد الرحمن عبد المنعم، دار الفضيلة، القاهرة، ١٤١٩ = ١٩٩٩م.

المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية بالقاهرة :إبراهيم مصطفى، و أحمد الزيات، و حامد عبد القادر، ومحمد النجار، ، دار الدعوة، القاهرة.

ثالثًا: الرسائل والأطاريح الجامعية

الحذف بين النحويين والبلاغيين دراسة تطبيقية: (أطروحة دكتوراه): حيدر حسين عبيد، كلية الآداب-الجامعة الإسلامية- بغداد"سابقًا- الجامعة العراقية "حاليًا، ١٤٣٠هـ=٢٠٠٩م .